رواية من المانيا

المرأة العسراء

@ketab_n
Follow Me
6.3.2016

بيترهاندكه

ترجمة :
ماري طوق

دار الآداب

بيتر هاندكه

المرأة العسراء

رواية

ترجمة ماري طوق

دار الآداب - بيروت

Twitter: @ketab_n

المرأة العسراء

Twitter: @ketab_n

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٩٩٠

Twitter: @ketab_n

كانت في الثلاثين من العمر وتقطن في وحدة من «البناغل» المشرفة على المنحدر الجنوبي لجبل متوسط الارتفاع، تماماً فوق ضباب مدينة كبيرة. كان شعرها بنّياً وعيناها الرماديتان كانتا أحياناً، ولو لم تكن تنظر إلى أحد، تشعّان دون أن يتغير تعبير وجهها.

كانت جالسة عند أصيل شتائي في ضوء الخارج الأصفر، قرب نافذة غرفة الجلوس الفسيحة أمام آلة كهربائية للخياطة، وكان جالساً إلى قربها ابنها البالغ من العمر ثماني سنوات يكتب فرضه. كانت الغرفة في أحد جوانبها جداراً واحداً من الزجاج أمام مصطبة معشبة، وشجرة عتيقة لعيد الميلاد والحائط المسدود للمنزل المجاور. كان الولد جالساً إلى طاولة كستنائية وهو منحنٍ فوق دفتره يكتب بقلم يصرّ ويمرّر لسانه لاحساً شفتيه. كان أحياناً يتوقف ناظراً إلى النافذة ثم يتابع الكتابة بانكباب أكثر وأحياناً أخرى ينظر إلى أمه التي كانت تراقبه وتنظر إليه هي أيضاً. كانت المرأة متزوجة من مسؤول عن مبيعات الشركة المحلية التابعة لمؤسسة بورسلين معروفة في أوروبا كلها؛ وكان المفروض أن يرجع هذا المساء من رحلة عمل دامت أسابيع عدة في اسكندنافيا. لم تكن العائلة ثرية ولكنها تعيش برفاهية دون أن تكون مضطرة إلى التفكير بالمال. كان «البنغل» مستأجراً لأن الزوج يمكن أن يُنقل في أي لحظة.

Twitter: @ketab_n

أنهى الولد فرضه وقرأ بصوت عالٍ ما كتبه: «كيف أتصوّر حياة أجمل ـ أودّ أن يكون الطقس لا حاراً ولا بارداً. وأن تهبّ دائماً ريح دافئة وأحياناً تحدث عاصفة نقرفص لنحتمي منها. السيارات اختفت. البيوت ستكون حمراء والغابات ذهبية. الجميع سيكون عارفاً كل شيء ولن يحتاج أحد إلى تعلّم شيء. نعيش في جزر. السيارات تبقى مفتوحة في الشوارع ويمكن أن نستلقي فيها عند التعب. ولكن أبداً لن يكون أحد متعباً والسيارات لا تخصّ أحداً. في المساء نبقى واقفين وننام حيث نحن. السماء لا تمطر إطلاقاً. من جميع الأصدقاء يكون لنا أربعة من كل جنس والناس الذين لا نعرفهم يختفون. كل ما لا نعرفه يختفي».

نهضت المرأة ونظرت من النافذة الجانبية الضيقة التي نرى أمامها على مسافة بعيدة قليلاً، بضع شجرات صنوبر ثابتة. عند أسفل الأشجار عدة صفوف من المرائب المستطيلة ولها السقوف المسطحة نفسها للبناغل، ومن الأمام طريق منفذٍ حيث يجر ولد زلاجة على الرصيف الخالي من الثلج. بعيداً وراء الأشجار عند الأسفل في السهل كانت تمتد الأراضي المفرزة التي تطيل المدينة، كانت طائرة تعلو تماماً فوق السهل. اقترب الولد وسأل المرأة المستغرقة في ذاتها من غير أن تكون مسمّرة، المستسلمة بالأحرى، إلى أين كانت تنظر. لم تسمع المرأة شيئاً ولم تتحرك. هزّها الولد وقال لها: «أفيقي». عادت المرأة من غفلتها ووضعت يدها على كتف الولد. عندها نظر هو أيضاً واستغرق بدوره في المشهد فاغراً فمه. بعد وقت قليل تحرك وقال: «أنا أيضاً نظرت شزراً مثلك». أخذا يضحكان دون أن يتمكنا من التوقف، ما إن يهدأ حتى يبدأ أحدهما فيضحك الآخر من جديد. من

Twitter: @ketab_n

شدة ما ضحكا انتهى بهما الأمر إلى المعانقة وسقطا معاً على الأرض.

سأل الولد هل بامكانه تشغيل جهاز التلفزيون. أجابت المرأة: «ولكن ما بالك، سنذهب لملاقاة برونو في المطار». ومع ذلك شغّل الجهاز وقعد أمامه. انحنت المرأة نحوه وقالت: «كيف سأفسر إذاً لوالدك الذي بقي طوال أسابيع في الخارج أنك...» الولد الذي كان ينظر إلى التلفزيون لم يعد يسمع شيئاً. نادته المرأة بأعلى صوتها؛ جمعت يديها حول فمها ونادته كما لو أنه في الخارج ولكنه ظلّ ينظر إلى الجهاز بثبات. حرّكت يدها أمام عينيه فمال برأسه متابعاً المشاهدة وهو فاغر فمه.

وقفت المرأة في معطفها الفرو المفتوح عند بداية الغسق في الخارج أمام المرائب حيث كانت برك الثلج الذائب تتجمد من جديد. في كل مكان على الرصيف إبر من أشجار عيد الميلاد المرمية. فيما كانت تفتح باب المرآب، رفعت عينيها نحو المجمّع حيث أضيئت بعض الأنوار في البناغل المتداخلة بعضها في بعض. خلف المجمع تنتشر غابة مغروسة بأشجار البلوط والزان والصنوبر صاعدة بانحناءة ناعمة صوب إحدى قمم الجبل المتوسط الارتفاع، الخالي من قرية أو حتى من بيت على طول امتداده، بان الولد عند نافذة «وحدتهم السكنية» كما كان زوجها يسمّي البنغل، ورفع ذراعه.

في المطار لم يكن الظلام قد هبط تماماً بعد، رأت المرأة، قبل أن تدخل قاعة وصول الرحلات الدولية، نقاطاً مضيئة في السماء فوق صواري الأعلام نصف الشفّافة، كانت تقف بين آخرين وجهها مصبوغ بالانتظار ولكنه هادىء ومتفتح لذاته. بعد الإعلان عن هبوط الطائرة القادمة من هلسنكي، ظهر المسافرون وراء حواجز الجمارك

Twitter: @ketab_n

وكان برونو بينهم يحمل في يديه حقيبة وكيساً من أحد مخازن السوق الحرّة وقد جمّد الإنهاك وجهه. كان أكبر منها بقليل، يرتدي دائماً بذلة من القماش المقفص وقميصاً مفتوحة الياقة. كانت عيناه بنيتين بامتياز، حتى أن البؤبؤ لا يكاد يرى، وبإمكانه أن ينظر إلى الناس طويلاً دون أن يشعروا بأنه يتفحصهم. في طفولته كان يروبص وحتى وهو كبير يتكلم دائماً في أحلامه.

في القاعة وأمام الجميع، وضع رأسه على كتف امرأته كأن عليه في هذه اللحظة بالذات أن يرتاح في فرو معطفها. انتزعت الحقيبة والكيس منه واستطاع أن يأخذها بين ذراعيه. بقيا هكذا لوقت طويل؛ كانت رائحة كحول خفيفة تفوح من برونو.

في المصعد الذي يؤدي إلى المرائب السفلية نظر إليها فيما كانت تتأمله.

دخلت هي أولاً في السيارة وفتحت له الباب. بقي في الخارج يتطلع أمامه. ضرب جبينه بقبضته ثم سدّ أنفه بأصابعه ونفخ الهواء من أذنيه كأنهما ما زالتا مسدودتين من جراء الرحلة الطويلة في الطائرة.

في السيارة وعلى الطريق المؤدية إلى البلدة الصغيرة على منحدر الجبل المتوسط حيث المجمع، سألت المرأة ويدها على المذياع: «هل تريد أن تسمع موسيقى؟» هزّ رأسه غير راغب. كان الليل قد خيم وكانت جميع الأنوار في مجموعات أبراج المكاتب على طول الطريق مطفأة تقريباً، وحولها على التلال المجمّعات تشع بالأنوار.

قال برونو بعد وقت قليل: «كانت فنلندا معتمة ليلاً ونهاراً ولم

Twitter: @ketab_n

أفهم كلمة من اللغة التي يتكلمونها هناك. ثمة عبارات تتشابه بين بلد وآخر، أما هناك فلا يوجد أي مصطلح دولي. الشيء الوحيد الذي حفظته وهو كلمة: أولوت أي البيرة. وفيما كنت جالساً مع بداية بعد الظهر في أحد مقاهي الخدمة الذاتية، وفي الوقت الذي أشرقت فيه السماء قليلاً، أخذت فجأة أخدش الطاولة. عتمة وبرد في جوف الأنف، لا أستطيع التحدث مع أحد. ذات ليلة، كان عواء الذئاب بمثابة تعزية كما التبويل من وقت لآخر في مرحاض عليه شعار مؤسستنا! كنت أريد أن أقول لك شيئاً يا ماريان. هناك فكرت فيك وفي ستيفان، وطوال السنوات المديدة التي عشناها سوية، شعرت للمرة الأولى بأننا ننتمي إلى بعضنا. وفجأة داهمني الخوف بأن أصير مجنوناً من الوحدة، مجنوناً بطريقة مؤلمة راعبة، بطريقة لم يعشها إنسان من قبل. قلت لك مرات عديدة بأنني أحبك ولكني الآن فقط أشعر أنني مرتبط بك. أجل في الحياة وفي الموت. والغريب أنه يمكنني الآن الاستغناء عنك وقد أحسست بذلك». بعد قليل وضعت المرأة يدها على ركبة برونو وسألت: «ماذا عن العمل؟»

أخذ برونو يضحك: «الطلبيات تستأنف. وإذا كان الاسكندنافيون يأكلون بشكل سيء، فليكن هذا على الأقل في آنيتنا. في المرة المقبلة يستوجب على الزبائن هناك أن يكلفوا أنفسهم عناء النزول لمشاهدتنا. توقف هبوط الأسعار ولم نعد بحاجة للموافقة على تنزيلات كبيرة كما في أيام المحنة.» وأخذ يضحك من جديد: «إنهم لا يتكلمون حتى الإنكليزية، هؤلاء الناس. مما اضطرنا لإحضار مترجمة وهي امرأة وحيدة مع ابنها تلقت دروسها هنا في الجنوب على ما أعتقده.»

Twitter: @ketab_n

المرأة: «تعتقد؟»

برونو: «لا، أعرف طبعاً. فهي أخبرتني بذلك.»

عند المجمّع، مرّا قرب غرفة للهاتف مضاءة وفيها خيال أحد ما ينتج ظلالاً، ثم انحرفا في أحد الأزقة الضيقة والمعوجة بشكل اصطناعي لتقسيم المجمع. وضع ذراعه حول كتفها. بينما كانت المرأة تفتح الباب، التفتت مرة أخرى نحو الزقاق الليلي في العتمة، إلى البناغل المتداخلة الواحد فوق الآخر والمسدولة الستائر.

سأل برونو: «هل ما زلت تحبين المكوث هنا؟»

المرأة: «أحياناً أرغب في محطة لبائع بيتزا تفوح منها رائحة كريهة أو في كشك جرائد.»

برونو: «على كل حال أنا أتنفس الصعداء عندما أعود إلى هنا.»

أخذت المرأة تبتسم. كان الولد في غرفة الجلوس قاعداً على كنبة واسعة جداً، يقرأ تحت مصباح. عندما دخل والداه رفع عينيه لبرهة ثم تابع القراءة. اقترب برونو منه ومع ذلك لم يتوقف عن القراءة. وأخيراً بعد وقت قليل ابتسم بطريقة بالكاد ملحوظة، ثم نهض وفتش في جيوب برونو كلها ليرى إذا ما أحضر له شيئاً.

وصلت المرأة من المطبخ حاملة صينية فضية عليها قدح من الفودكا، ولكنها لم تجدهما في غرفة الجلوس. عبرت الرواق ونظرت في الغرف المتتابعة كالزنزانات. عندما فتحت باب الحمام، كان برونو جالساً على حافة المغطس ينظر دون حراك إلى الولد الذي ينظف أسنانه مرتدياً ثياب النوم. كان قد أرجع أكمامه كي لا تتبلل لاعقاً بعناية معجون الأسنان المفتوح ـ معجون أسنان للأطفال بطعم

Twitter: @ketab_n

الفريز ـ ثم وضع كل شيء على الرف واقفاً على رؤوس أصابعه من أجل ذلك. أخذ برونو الكأس عن الصينية وسأل: «ألن تشربي شيئاً؟ هل لديك عمل ما هذه الليلة؟»

المرأة: «وهل أنا مختلفة عما أنا عليه عادة؟»

برونو: «أنت مختلفة في كل مرة.»

المرأة: «ماذا تقصد؟».

برونو: «أنت من هؤلاء الناس النادرين الذين لا نحتاج في حضرتهم لأن نخاف، فضلاً عن ذلك، أنت امرأة لا نضطر لأن نلعب أمامها دوراً ما.» ربّت للولد فخرج هذا الأخير.

في غرفة الجلوس وفيما كانت المرأة وبرونو يرتبان الألعاب المبعثرة طيلة النهار، نهض برونو وقال: «ما زالت أذناي تطنان من جراء الطائرة. ما رأيك لو نذهب لتناول عشاء فاخر. أجد الأمر هنا في هذا المساء حميمياً جداً، مسحوراً جداً وناعساً. ارتدي ثوبك المقوّر لو سمحت.»

سألت المرأة التي كانت لا تزال مقرفصة تتابع ترتيب الأغراض: «وأنت ماذا سترتدي؟»

برونو: «أنا سأذهب هكذا كالعادة. سأستعير ربطة العنق من مكتب الاستقبال. هل ترغبين مثلي في اجتياز مسافة الطريق سيراً على الأقدام؟»

فيما كان برونو يتابع عقد ربطة عنقه، اقتادهما نادل مقوّس الساقين ودخلا في القاعة الملكية الفخمة ذات السقف العالي جداً لمطعم في الجوار بالكاد يكون مرتاداً هذا المساء. قدم لهما النادل الكراسي

Twitter: @ketab_n

بطريقة لا يلزمها معها سوى الانزلاق باستسلام. بسطا معاً محرمتيهما البيضاوين وضحكا.

لم يأكل برونو فقط كل ما كان في صحنه بل مسحه أيضاً بقطعة من الخبز الأبيض. ثم حمل في يده قدحاً من الكلفادوس الذي يرسل وهجاً أحمر على ضوء المصابيح، قال وهو يتأمله: «اليوم أنا بحاجة لأن أخدم بهذه الطريقة. يا للأمان! يا للخلود القصير!» كان النادل واقفاً في الخلف دون حركة بينما تابع برونو كلامه: «في الطائرة قرأت رواية إنكليزية. هناك مشهد فيها عن خادم يعجب بطل الكتاب، في خدمته اللائقة، بالجمال الناضج للخدمة الإقطاعية التي تعود إلى بضع مئات من السنين. أن يكون هو موضوع هذه الخدمة الفخورة والجليلة أمر يمثل له، حتى ولو لساعة تناول الشاي القصيرة، ليس المصالحة مع ذاته فحسب بل المصالحة أيضاً وبصورة غريبة مع مجموع الجنس البشري.» التفتت المرأة؛ نادى برونو فنظرت دون أن تنظر إليه هو.

قال برونو: «هذه الليلة، سنبقى هنا في الفندق. ستيفان يعرف مكاننا. وضعت رقم الهاتف قرب سريره.» غضت المرأة الطرف وأشار برونو إلى النادل الذي انحنى نحوه: «أريد غرفة هذه الليلة. أنت تعرف، أنا وزوجتي علينا أن ننام سوية في الحال.» نظر النادل إليهما وابتسم ليس بطريقة متواطئة بل ودودة بالأحرى: «إنه موسم المعرض الشعبي، لكني سأحاول.» عند الباب، التفت مرة أخرى وقال: «سأرجع في الحال.»

كانا وحيدين في القاعة حيث ما تزال شموع مشتعلة على

Twitter: @ketab_n

الطاولات كلها؛ كانت الإبر تتساقط دون ضجة تقريباً من أشرطة الزخرفة في أغصان الصنوبر. على الجدران تمايلت ظلال على أنسجة «الغوبلان» التي تمثل مشاهد عن الصيد. نظرت المرأة طويلاً إلى برونو. كانت جدية للغاية ولكن وجهها مشرق بطريقة خفية.

عاد النادل وقال على عجلة: «هذا هو مفتاح غرفة البرج. نام فيها رجال سياسيون، نأمل ألا يزعجكما ذلك.» أشار برونو نفياً، وأضاف النادل دون أن يصطنع الألفة: «أتمنى لكما ليلة جميلة. وآمل ألا تزعجكما ساعة البرج. ذلك أن العقرب الكبير يصر كل دقيقة.»

عندما فتح برونو باب الغرفة قال بهدوء شديد: «هذا المساء، كأن كل ما رغبت فيه تحقق، كما لو أنني أستطيع الانتقال مسحوراً من مكان سعادة لآخر. أحس بقوة سحرية تسري فيَّ يا ماريان. وأنا محتاج إليك. وأنا سعيد. أضيء سعادة.» ابتسم لها مندهشاً. دخلا الغرفة وأشعلا الضوء بسرعة في كل مكان حتى في المدخل والحمام.

عند الفجر استيقظت المرأة. كانت تنظر إلى النافذة نصف المفتوحة المسدولة الستائر؛ دخل ضباب شتائي. كان عقرب ساعة البرج يصرّ بنعومة. قالت لبرونو النائم إلى جانبها: «أود لو أعود.»
فَهِم في الحال وهو نائم.

هبطا بهدوء الطريق المؤدية إلى الموقف. كان برونو قد أحاطها بذراعه ثم انطلق راكضاً وقفز فوق العشب المتجمد.

توقّفت المرأة فجأة وهزّت رأسها. على مسافة بعيدة قليلاً التفت برونو نحوها متسائلاً. قالت: «لا شيء، لا شيء». وهزت رأسها من جديد. نظرت طويلاً إلى برونو كأن رؤيته تساعدها على التفكر.

Twitter: @ketab_n

عندئذ اقترب منها فحوّلت نظرها نحو أشجار الموقف وجنباته المغطاة بالجليد الذي هزّته ريح الصباح قليلاً.

قالت المرأة: «خطرت لي فكرة غريبة؛ الواقع ليست فكرة محددة بل نوع من الإلهام. ولكني لا أريد التحدث بشأنه. فلنذهب إلى البيت بسرعة يا برونو، عليّ أن أوصل ستيفان إلى المدرسة.» أرادت متابعة طريقها ولكن برونو أمسكها: «الويل لك إن لم تقولي.»

المرأة: «الويل لك إن قلت.»

في الوقت نفسه جعلته هذه العبارة يضحك: نظرا إلى بعضهما طويلاً بدعابة ثم بنرفزة، برعب وأخيراً بتصميم.

برونو: «حسناً قولي لي إذاً.»

المرأة: «خطر لي فجأة إلهام ـ هذه الكلمة أيضاً جعلتها تضحك ـ أن تذهب عني وتتركني لوحدي. أجل هذا ما أردت قوله يا برونو، اذهب عني. اتركني لوحدي».

بعد وقت قليل هزّ برونو رأسه طويلاً، رفع ذراعيه نصف ارتفاعة وسأل: «إلى الأبد؟»

المرأة: «لا أعرف. فقط تذهب وتتركني لوحدي.» صمتا ثم ابتسم برونو وقال: «ولكن أصعد أولاً إلى الفندق من جديد وأشرب فنجاناً من القهوة. ثم آتي بعد الظهر لآخذ أغراضي.»

أجابت المرأة دون عدائية، بودّ: «في الأيام الأولى يمكنك بالتأكيد الإقامة عند فرانشيسكا. فزميلها المدرس تركها منذ فترة وجيزة.»

Twitter: @ketab_n

برونو: «سأفكر بالأمر وأنا أحتسي قهوتي.» رجع إلى الفندق وغادرت الموقف.

في الممر الطويل المؤدي إلى المجمّع وثبت وأخذت فجأة تركض في البيت فتحت الستائر، أدارت المسجّل وتظاهرت بالرقص حتى قبل أن تبدأ الموسيقى. جاء الولد في البيجاما وسألها: «ماذا دهاك؟» المرأة: «أحس بضيق على ما أعتقد.» وبعد ذلك: «ارتدِ ثيابك يا ستيفان، حان وقت المدرسة. خلال هذا الوقت سأحضر لك الفطور.» ذهبت إلى المرآة في الرواق ورددت: «يا يسوع - يا يسوع - يا يسوع!»

صباح شتائي مشرق حيث كانت ندف الثلج تخرج من الضباب كأنها تتساقط ببطء أكثر وبطريقة متباعدة. أمام المدرسة التقت المرأة بصديقتها فرانشيسكا وهي امرأة قوية البنية، شعرها أشقر قصير وصوتها يمكن تمييزه وسط أي اجتماع حتى عندما لا تتكلم بصوت عالٍ. كانت لا تعبر عن نفسها إلا بالآراء فقط تقريباً، ليس عن قناعة بل خشية أن تبدو الأحاديث الأخرى وكأنها استغياب.

قرع جرس المدرسة في هذا الوقت بالذات. حيّت فرانشيسكا الولد بتربيته على كتفه وقالت للمرأة حين توارى عبر البوابة: «أعرف كل شيء. اتصل برونو بي في الحال. قلت له وأخيراً صحت حبيبتك ماريان. - هل تنوين ذلك حقاً؟ هل أنت جادة؟»

المرأة: «لا أستطيع التكلم الآن يا فرنشيسكا!»

بعد أن ولجت المعلمة بناء المدرسة صرخت بها: «نتقابل بعد الحصة في المقهى. أنا مضطربة تماماً.»

Twitter: @ketab_n

خرجت المرأة من المغسل حاملة رزماً. وجدت نفسها في ملحمة. وفي الموقف أمام المركز التجاري للمدينة الصغيرة، ثبتت أكياساً بلاستيكية ثقيلة في مؤخرة سيارتها الڤولسفاكن. ما زال لديها القليل من الوقت، اجتازت المنتزه الفسيح المتوهد، ومشت إلى جانب بحيرات متجمدة تتزحلق فيها بضع بطات. كانت تود الجلوس في مكان ما ولكن كراسي المقاعد مغكوكة طيلة فصل الشتاء. لذا بقيت واقفة تتأمل السماء الموشحة بالغيوم. توقف قربها بعض الأشخاص المسنين وراحوا هم أيضاً ينظرون.

وافت فرانشيسكا إلى المقهى؛ كان الولد يقرأ قربها كتاب مسلسلات مصورة. أشارت فرانشيسكا إلى الكتاب وقالت: «هذه البطة هي الشخصية الوحيدة في المسلسلات المصورة التي أسمح بها في صفي. حتى أنني أشجع التلاميذ على قراءة مغامراتها الحزينة. فالأولاد يتعلمون عن الحياة بفضل هذا الحيوان المتروك دوماً أكثر مما يتعلمونه هنا في الإطار المزدهر للأملاك العقارية حيث الحياة لا تقوم إلا على تقليد ما نراه في التلفزيون.» تبادل الولد المختفي وراء الدفتر والمرأة النظرات.

سألت فرانشيسكا: «والآن ماذا ستفعلين وحيدة؟»
المرأة: «البقاء جالسة في الغرفة دون أن أعرف ماذا سأفعل.»
فرانشيسكا: «لا، بجد، هل هناك رجل آخر؟»
هزت المرأة رأسها نافية.
فرانشيسكا: ممَّ ستعيشان أنتما الإثنان، هل فكرت بالأمر؟»

المرأة: «لا، ولكني أرغب في معاودة الترجمة. عندما تركت دار

Twitter: @ketab_n

النشر، قال لي الناشر إنه بدل الاهتمام بعقود أجنبية، كما كنت مجبرة على ذلك باعتباري مستخدمة في الدار، سوف يكون بإمكاني أخيراً أن أترجم كتباً حقيقية. ومنذ ذلك الوقت وهو يقدم لي العروض بانتظام.»

فرانشيسكا: «روايات، أشعار! وأشياء من هذا القبيل مقابل عشرين ماركاً ربما للصفحة. أي ثلاثة ماركات في الساعة.»

المرأة: «خمسة عشر ماركاً للصفحة كما أعتقد.»

تأملتها فرانشيسكا ملياً: «أود لو تنضمين في أبكر وقت ممكن إلى جماعتنا. سترين، نحن نشكل اتحاداً تتفتح فيه كل واحدة منا. ثم إننا لا نتبادل وصفات لتحضير الطعام. أنت لا تتصورين أن هذه الأشياء الفردوسية ممكنة بين النساء.»

المرأة: «سآتي بكل سرور ذات مرة.»

فرانشيسكا: هل سبق وعشت وحدك؟»

عندما هزت المرأة رأسها من جديد، قالت فرانشيسكا: «أنا أجل. ولا أحمل للوحدة في نفسي إلا احتقاراً. أحتقر نفسي عندما أكون وحيدة. على كل حال، برونو سيسكن عندي مؤقتاً إلا إذا كنت لا تريدين استرداده هذا المساء بالذات، كما أقدر على الأرجح. لا أستطيع التوصل إلى تصديق ذلك حقاً. ومع ذلك فأنا متحمسة يا ماريان وفخورة بك بشكل غريب.»

جذبت المرأة نحوها وعانقتها. ثم قالت للولد المختفي وراء «الألبوم» وهي تربت على ركبتيه: «ماذا سيفعل العم بيسكو هذه المرة ليعثر على قريبه المسكين؟» لم يتحرك الولد المستغرق في القراءة.

Twitter: @ketab_n

ولفترة لم ينبس أحد بكلمة. ثم أجابت المرأة: «ستيفان يرغب دائماً في أن يكون هو الثري، لأنه عنصر جيّد كما يقول.»

أدنت فرانشيسكا كوبها الفارغ إلى فمها كأنها تشرب. وضعت الكأس ونظرت إلى المرأة والولد بوجه يرق شيئاً فشيئاً. (أحياناً، كان يحدث لفرانشيسكا أن يداهمها حنان صامت دون سبب معين، مما يجعل وجهها الهادىء شبيهاً بكثير من وجوه النساء الأخرى ومختلفاً جداً ـ كأنها بهذا الحنان الغامض تعرف نفسها.

في البيت وفي رواق البنغل كانت المرأة تهيء حقائب برونو أمام الخزائن المفتوحة. عندما فتحت إحدى الحقائب الفارغة، وجدت الولد مكوراً فيها، نهض بقفزة واحدة وهرب راكضاً. من الحقيبة الثانية خرج صديق ستيفان وهو ولد بدين كفاية، وتبعه راكضاً حتى المصطبة حيث ضغطا وجهيهما على الزجاج ثم سحبا لسانيهما اللذين سرعان ما آلماهما على الزجاج المتجلد. طوت المرأة الجائية في الرواق القمصان بعناية ثم جرّت الحقائب إلى غرفة الجلوس ووضعتها في وسط الغرفة، مهيأة للحمل. عندما رنّ الجرس، ذهبت بسرعة إلى المطبخ. فتح برونو بمفتاحه، دخل ناظراً حوله كدخيل. رأى الحقائب الواحدة قرب الأخرى، نادى المرأة ثم أشار إلى الحقائب ساخراً: «وصورتي هل تسنّى لك نزعها من على طاولة السرير.»

تصافحا.

سألها أين هو ستيفان فأشارت إلى الواجهة الزجاجية الكبيرة حيث

Twitter: @ketab_n

كان الولدان يقومان بتكشيرات صامتة. قال برونو بعد وقت قليل: «أليس أمراً غريباً ما حدث لنا هذا الصباح؟ مع أننا لم نكن ثملين البتة. الآن أحس أنني مضحك بعض الشيء وأنت لا؟».

المرأة: «أجل، أجل، في الحقيقة لا.»

أخذ برونو الحقائب: «لحسن الحظ أن العمل في المكتب يستأنف غداً. ـ على كل حال أنت لم تعيشي قط لوحدك من قبل.»

المرأة: «إذاً أنت آتٍ من عند فرانشيسكا.»

ثم قالت: «ألا تريد أن تقعد؟»

قال برونو وهو يخرج ويهز رأسه متضايقاً: «يا لعدم مبالاتك... أما تذكرين أن شيئاً ما قوياً كان موجوداً بيننا، شيئاً أبعد من مجرد كوننا زوجاً وزوجة ولو أنه مشروط بهذا الأمر؟».

أغلقت المرأة الباب وراءه وبقيت جامدة. سمعت ضجة السيارة المنطلقة. ذهبت إلى حجرة الملابس قرب الباب ووضعت رأسها بين الألبسة المعلّقة هناك.

كانت المرأة جالسة في العتمة الخفيفة أمام جهاز التلفزيون دون أن تشعل الضوء. كانت قناة إضافية تسمح بمراقبة باحة الألعاب الخاصة بأولاد المجمّع. نظرت إلى الصورة الصامتة بالأبيض والأسود حيث كان ولدها الآن منهمكاً بالتأرجح على جذع شجرة فيما صديقه البدين يسقط دون توقف على الأرض. لم يكن هناك أحد آخر في الملعب المقفر، كانت عينا المرأة مغرورقتين بالدموع.

في المساء تناولت المرأة والولد العشاء وحيدين في غرفة الجلوس. أنهت عشاءها الآن ونظرت إلى الولد الذي يمضغ بصعوبة ثم يبلع

Twitter: @ketab_n

من جديد. من وقت لآخر كان أزيز البراد يجيء من المطبخ الذي تصله كوة الصحون بالغرفة. عند قدمي المرأة جهاز الهاتف.

سألت ستيفان هل عليها أن تضعه في السرير. أجاب الولد: «لكني أذهب دائماً لوحدي إلى السرير.» المرأة: «دعني على الأقل أرافقك».

في غرفة الأولاد ألبست الولد المندهش بيجامته ثم حاولت أن تحمله لتضعه في السرير. قاوم الولد واضطجع لوحده، على هذا دثرته بالغطاء حتى العنق. كان يحمل كتاباً في يده. دلّها على صورة تمثل الجبل العالي في نهار مشرق وعقاعق تطير في المقدمة. قرأ بصوت عالٍ التعليق المكتوب في أسفل الصورة: «نهاية الخريف فوق منظر الجبال العظيم: حتى في هذا الفصل القمم ساحرة عندما يكون الطقس مؤاتياً.» سألها ما معنى ذلك فترجمت له التعليق: حتى في آخر الخريف بالإمكان تسلق الجبال إذا كان الطقس جيداً. انحنت نحوه وقالت: «تفوح منك رائحة البصل.»

كانت المرأة تقف وحيدة أمام الخزانة المفتوحة حيث سلة القمامة وفي يدها الصحن الذي لم ينهه الولد. وضعت قدميها على الدوّاسة بحيث يبقى الغطاء مرفوعاً. أخذت من جديد وهي مقرفصة بضع لقمات بالشوكة وحملتها إلى فمها. بقيت مقرفصة وهي تمضع ثم رمت البقية في سلة القمامة. مكثت لبرهة في هذا الوضع.

ممددة على ظهرها أثناء الليل، حملقت المرأة. لم تكن هناك ضجة، فقط لهاث نفسها الملاصق للغطاء ودقات قلبها. هرعت إلى النافذة وفتحتها، لكن الصمت أخلى المكان لجلبة ضعيفة. ذهبت إلى غرفة

Twitter: @ketab_n

الولد، الغطاء في يدها، واضطجعت على الأرض قرب سريره.

في أحد الصباحات التالية، كانت المرأة قاعدة في غرفة الجلوس تدق على الآلة الكاتبة: قرأت من جديد بصوت منخفض ما كتبته: «أخيراً بإمكاني أن أجيب على عروضك المتكررة للترجمة عن الفرنسية. حدّد لي شروطك. في الوقت الحاضر، أفضل المؤلفات العلمية. دائماً أفكر في العمل في دارك، (وأضافت لنفسها: وإن كان عملي على الآلة الكاتبة قد سبّب لي باستمرار التهابات في أطراف المعصم) وأنتظر مخابرة منك.»

وضعت الرسالة في صندوق البريد قرب كشك الهاتف عند طرف المجمّع. عندما التفتت رأت برونو يتجه نحوها. أمسكها بعنف من يدها ثم نظر حوله ليرى ما إذا كان أحد يراقبهما: على مسافة بعيدة فوق على الطريق، التفت اثنان من مرتادي الغابات في بناطيل الغولف يحملان كيساً على الظهر. دفع برونو المرأة إلى كشك الهاتف، ثم اعتذر فجأة.

نظر إليها طويلاً: «هل ستستمر هذه اللعبة طويلاً يا ماريان؟ أنا، في جميع الأحوال، لا رغبة لي في اللعب.»

أجابت المرأة: «الآن لا تبدأ الكلام خاصة عن الولد.» ضربها دون أن يقدر أن يطالها تماماً لضيق الغرفة. ثم قام بحركة كأنه ينوي أن يضع يديه على وجهه ولكنه تركهما تسقطان في الحال: «فرانشيسكا تقول إنك لا تدرين ماذا تفعلين. تقول إنك لا تعين الظروف التاريخية لتصرفك.» ضحك: «هل تعرفين ماذا تقول عنك؟ ـ إنك

Twitter: @ketab_n

متصوفة لذاتك وحدك. أجل هذا ما تقوله أنت متصوفة، متصوفة، Rabeunah بع! اسم الرب، أنت مريضة. قلت لفرانشيسكا إن بضع صدمات كهربائية كفيلة بإرجاعك إلى رشدك.»

على هذا، صمتا طويلاً. ثم قالت المرأة: «يمكنك بالطبع المجيء دائماً في نهاية الأسبوع لاصطحاب ستيفان إلى حديقة الحيوانات أو إلى المتحف التاريخي مثلاً.»

مرة ثانية لم ينبسا بكلمة. وفجأة أخرج برونو صورة لزوجته، أمسكها أمام وجهها وأشعلها بقداحة. حاولت المرأة ألا تبتسم، نظرت إلى مكان آخر، ومع هذا ابتسمت.

خرج برونو ورمى الصورة المحروقة؛ لحقت به. التفت وقال بهدوء: «وأنا؟ هل تعتقدين أنني غير موجود، هل تتخيلين أنك من بين جميع البشر أنت وحدك على قيد الحياة؟ أنا أيضاً أعيش يا مريان. أعيش!»

في هذه اللحظة جذبت المرأة برونو إلى الخلف. كان قد هبط إلى قارعة الطريق ووصلت سيارة.

سأل برونو: «هل أنت بحاجة إلى المال؟» وأخرج بعض الأوراق المالية.

المرأة: «ولكن لدينا حساب مشترك. أم أنك قدمت اعتراضاً إلى المصرف؟»

برونو: «بالطبع لا، ولكن خذيها على كل حال، حتى ولو لم تكوني بحاجة إليها؛ لو سمحت.» مدّ لها المال وأخذته في النهاية. بدا أنهما

Twitter: @ketab_n

مرتاحان. طلب منها وهو ذاهب أن تنقل سلامه إلى ستيفان، هزت رأسها موافقة وقالت إنها ستذهب قريباً لرؤيته في المكتب.

من مسافة بعيدة صرخ بها برونو باحتقار: «حاولي ألا تكوني وحيدة جداً. سينتهي بك الأمر يوماً بأن تموتي وحيدة.»

في بيتها، وقفت المرأة أمام المرآة، نظرت طويلاً في عينيها، ليس لتنظر إلى نفسها بل كأنها إمكانية للتفكير بذاتها بسلام.

بدأت تتكلم بصوت عالٍ: «فكروا كما يحلو لكم. كلما اعتقدتم أنكم تستطيعون التحدث عني كلّما صرت أكثر حرية بالنسبة لكم. أحياناً يبدو لي أن الجديد الذي نعرفه عن الناس لم يعد له أية قيمة. في المستقبل، إذا حاول أحد أن يصفني ـ حتى ولو كان يبغي مدحي أو جعلي أكثر قوة ـ لن أقبل بوقاحة كهذه.» مدت ذراعها فبانت ثغرة تحت الأبط في الكنزة، أدخلت إصبعها فيها.

وهكذا فجأة أخذت تعيد ترتيب الأثاث من جديد وساعدها الولد في ذلك. ثم وقفا يتأملان من زوايا مختلفة الغرف المتغيرة. في الخارج مطر شتائي عنيف يتساقط ويرتدّ عن الأرض كأنه حبات بَرَد. كان الولد يمرر في جميع الاتجاهات مكنسة كهربائية، والمرأة على المصطبة تنظّف مكشوفة الرأس المساحة الزجاجية العريضة بواسطة جرائد. وضعت سائلاً مزيلاً للبقع على الموكيت. رمت أوراقاً وكتباً في كيس للقمامة أُسندت قربه بضعة أكياس أخرى ممتلئة ومربوطة. نظفت علبة الرسائل بخرقة. وقفت في غرفة الجلوس على سلم لتبدل اللمبة ووضعت واحدة أخرى جديدة لتضيء بشكل أفضل.

Twitter: @ketab_n

في المساء، كانت الغرفة تشع والطاولة الكستنائية المغطاة بشرشف أبيض معدّة لشخصين. في وسطها شمعة ضخمة صفراء تشتعل ويُسمع صوت احتراقها. طوى الولد الفوط ووضعها في الصحون. وعلى صوت موسيقى مائدة عذبة («موسيقى المائدة في الوحدة السكنية»، حسب التعبير الذي كان يستعمله برونو) جلسا الواحد قبالة الآخر. حين بسطا فوطتيهما ذهلت المرأة فسألها الولد هل تشعر بالضيق من جديد. هزت المرأة رأسها لتقول لا وهي لا تزال مندهشة، ثم رفعت الغطاء عن الطبق.

خلال العشاء أخبرها الولد: «هناك أمر جديد في المدرسة. صفّنا لم يعد بحاجة إلى أكثر من أربع دقائق لخلع المعاطف والأحذية وارتداء الأخفاف والمراويل. اليوم، عيّر المدير الوقت بكرونومتر حقيقي. في بداية السنة كنا نستغرق عشر دقائق. قال المدير إننا سوف نتوصل بسهولة من الآن حتى نهاية السنة إلى تقليص رقمنا القياسي إلى ثلاث دقائق. كان بإمكاننا أن نحقق بسهولة السرعة المرجوّة لولا أن جورغن الضخم لم يرتبك بفك أزرار معطفه. بعد ذلك بكى طيلة الصباح. وعند الفرصة، اختبأ بين المعاطف وحتى أنه بال في ثيابه. هل تعلمين كيف سنتوصل إلى ثلاث دقائق؟ نبدأ الركض حالاً منذ بئر الدرج ونخلع كل شيء ونحن نركض!»

قالت المرأة: «من أجل هذا إذاً تريد أن ترتدي دائماً ورغم البرد المعطف الأقل سماكة لأن فك أزراره أسهل.» وأخذت تضحك.

الطفل: «لا تضحكي هكذا. تضحكين مثل جورغن الضخم. إنه يرغم نفسه دائماً ليتمكن من الضحك. أنت عمرك ما كنت

Twitter: @ketab_n

سعيدة حقاً. لم ترضي عني سوى مرة واحدة عندما كنت أسبح وذهبت إليك فجأة دون عوامة. عندها صرخت حقاً من السعادة وأخذتني بين ذراعيك.»

المرأة: «لا أذكر ذلك إطلاقاً».

الولد: «ولكني أنا أذكر.» كان يصرخ بشراسة: «أنا أذكر، أنا أذكر.»

في الليل، كانت المرأة جالسة عند النافذة وإلى جانبها قاموس ضخم. الستائر مسدولة. أغلقت الكتاب، فتحت الستائر من جديد. كانت سيارة تنعطف وتدخل ساحة المرائب وعلى الرصيف امرأة في خريف العمر تنزه كلبها، رفعت نظرها في الحال نحو النافذة وكأن لا شيء يفوتها وحيّت بيدها.

كانت المرأة تجر عربة تسوّق في أحد الممرات الضيقة للمتجر الكبير حيث ينبغي الانحراف جانباً فور ملاقاة أحد ما. كانت العربات الفارغة التي يضعها الموظف الواحدة داخل الأخرى تطقطق، وفوق ذلك الآلات الحاسبة تفرقع وجرس يرن عند مستودع القناني فيما موسيقى السوق تصدح وتقطعها باستمرار عروض اليوم والأسبوع والشهر. بقيت المرأة برهة جامدة ثم نظرت حولها بهدوء أكثر: أخذت عيناها تبرقان.

في ممر أقل ازدحاماً وجّهت فرانشيسكا التي كانت تجر عربة خلف المرأة الكلام إليها. قالت فرانشيسكا: «في قسم الخبز، رأيتهم الساعة يغلفون الخبز لربة بيت من هنا فيما يضعونه هكذا دون تغليف في يد

Twitter: @ketab_n

اليوغوسلافي خلفها. . . عادة أذهب إلى سمّان الزاوية حتى ولو كان الخس نصف ذابل أو كما هو الآن نصف محروق بالجليد. ولكن لا يمكن أن نكون إنسانيين طوال الشهر.»

دفعها أحدهم بقوة وقالت المرأة: «أحياناً أحس أنني على ما يرام في هذا المكان.»

أشارت فرانشيسكا إلى ثغرة في جدار «البولسترين» حيث هناك رجل في قميص بيضاء يراقب المشترين. كانت مرغمة في الضجة على الصراخ: «ربما تشعرين بالإضافة إلى ذلك أن هذا الميت الحي يحميك.»

المرأة: «إنه يلائم المتجر الكبير: وأنا المتجر الكبير يلائمني. اليوم على الأقل.»

اتخذتا مكاناً أمام الصندوق حيث داعبت فرانشيسكا فجأة مرفق المرأة برقة. ثم قالت وهي منزعجة بعض الشيء: «بالتأكيد وقفنا من جديد أمام الصندوق السيء. سيأتي دور الجميع يميناً ويساراً فيما نحن لا نزال ننتظر هنا. الأمر دائماً هكذا، بالنسبة لي أنا على الأقل.»

أمام المتجر الكبير كانت بضعة كلاب مربوطة ترتجف من البرد. تمسكت فرانشيسكا بذراع المرأة: «انضمي إلى جماعتنا مساء الغد إن شئت. ستسر الأخريات لرؤيتك. لدينا شعور قوي الآن أن كل الأمور واضحة تقريباً في الذهن ومع ذلك فالحياة في مكان آخر. نحن بحاجة إلى أحد يرتاح قليلاً من دورة العالم، وباختصار إلى أحد ما يحيد عن الطريق قليلاً، هل فهمت ما أعني!»

المرأة: «ستيفان لا يحب البقاء لوحده مساءً في هذه الأيام.»

Twitter: @ketab_n

فرانشيسكا: «بإمكانك أن تجدي الأسباب في أي موجز لعلم النفس. برونو أيضاً لا يتحمل أن يكون وحيداً. فهو يسقط، كما يقول، من جديد وفوراً في غرائب طفولته القديمة. على فكرة هل شاهدت أمس في التلفزيون التحقيق المصور عن الأشخاص الوحيدين؟»

المرأة: «لا أذكر منه إلا لحظة قال المحدث إلى أحدهم: «هات لنا قصة عن الوحدة!» فبقي الآخر صامتاً.»

قالت فرانشيسكا بعد برهة: «حاولي على كل حال أن تأتي غداً. نحن لا نصيح كالنساء أمام طاولات الحانات.»

ذهبت المرأة وصرخت بها فرانشيسكا: «لا تتناولي كأساً لوحدك يا ماريان.»

تابعت السير حاملة أكياسها البلاستيكية الممتلئة، تمزق مقبض أحد الأكياس فاضطرت إلى إمساكه بيدها.

في المساء كانت المرأة والولد جالسين أمام التلفزيون. انتفض الولد أخيراً وأطفأ الجهاز. قالت المرأة مندهشة مضطربة: «آه، شكراً.» وفركت عينيها.

قرع الباب، هرع الولد ونهضت هي كأنها طائشة. دخل الناشر بسرعة قصوى من الباب المفتوح: رجل ضخم تهزّه قليلاً سنواته الخمسون وله عادة الاقتراب بشكل متواصل من مُحدّثه فيما يأخذ صوته نبرة خفيفة. (في كل مرة يتصرف وكأن الأمر على قدر من

Twitter: @ketab_n

الأهمية بالنسبة له، وهو يسترخي فقط عندما نوفّق إلى أن نشعره بعدم الحاجة إلى إثبات قيمته وإمكاناته. في بادىء الأمر، كان يتصرف حتى مع الذين يرتاح إليهم كثيراً بطريقة مضطربة ومباغتة مثل واحد انتزع فجأة من غفوته ولا يرجع سيد نفسه فعلاً إلا عندما يفيق بشكل تام. كان يتصرف حيثما وجد وكأنه هو المضيف، ولم يكن حماسه للتواصل مع الآخرين، الذي يجري متقطعاً وبالتالي أكثر إثارة للحيرة، ليستسلم إلا أمام هدوء محدّثه تاركاً عندئذ المكان لعفوية يبدو معها أنه شفي من رغبته اللجوجة في التواصل. (كان يحمل أزهاراً في يد وقنينة شمبانيا في اليد الأخرى.

قال: «عرفت أنك وحدك يا ماريان. على الناشر أن يتقن القراءة بين سطور الرسالة.»

أعطاها ما أحضر معه: «عشر سنوات مرت! هل لا زلت تذكرينني؟ أنا على كل حال أذكر كل شيء عن الحفلة التي نظمت على شرف رحيلك يا ماريان. وأتذكر على الأخص ثوباً ما متموج الألوان ورائحة زنبق ما وراء أذن ما.»

كان الولد بقربها ناصتاً. سألت المرأة: «واليوم ماذا تشم؟».

أخذ الناشر نفساً.

المرأة: «إنها رائحة ملفوف بروكسيل. تبقى هذه الرائحة لأيام عدة في خزائن الحيطان. ولكن الأولاد يحبون كثيراً هذه الخضار. سأذهب لإحضار كأسين للنبيذ الفوّار.»

هتف الناشر: «هذا ليس نبيذاً فوّاراً بل شمبانيا.» ثم بسرعة

Twitter: @ketab_n

كبيرة وبلهجة مختلفة تماماً: «على فكرة كيف نترجم روزنكوهل إلى الفرنسية؟».

قالت المرأة بالفرنسية: «ملفوف بروكسيل.»

صفق لها الناشر: «امتحان موفّق. أتيت في الحقيقة لأعطيك قصة واقعية كتبتها شابة فرنسية وتحوي بالطبع الكثير من هذه التعابير. بإمكانك أن تباشري بالترجمة منذ الغد.»

المرأة: «ولم لا في الحال، هذه الليلة؟».
الناشر: «طر يا حمام!».
المرأة: «ما الذي قادك إلى طر يا حمام؟».
الناشر: «لا بدّ وأني فكرت بالألوان المتموجة.»

ابتسمت المرأة وحسب: «هل ستفتح القنينة أنت؟» حملت الأزهار إلى المطبخ. أخذ الناشر يعالج الفتحة والولد يراقب.

كانا قاعدين في غرفة الجلوس يشربان. والولد شرب قليلاً معهما. بعد أن قرعت الكؤوس بكثير من الأبهة داعبت الولد وقال الناشر: «على أية حال لدي عمل في الضواحي. أحد المؤلفين الذين يعملون عندي يسكن قريباً من هنا. أنا قلق بشأنه. حالته صعبة. لم يعد يكتب شيئاً وأخشى ألا يعود ينتج أي شيء. داري تحميه طبعاً على الصعيد المادي في حدود المعقول كل شهر. لقد حثثته على كتابة سيرته الذاتية على الأقل، فالشهادات المعيوشة مطلوبة كثيراً. ولكنه يكتفي بالإيماء رافضاً، إنه لا يتكلم مع أحد ولا يرسل إلا أصواتاً مضطربة. شيخوخة مرعبة في انتظاره يا ماريان، دون عمل، دون أحد.»

Twitter: @ketab_n

قالت المرأة بعنف غريب: «ولكنك لا تعلم شيئاً عنه. ربما هو سعيد في بعض الأحيان.»

استدار الناشر ناحية الولد: «سترى كيف سأطيّر لك سدة القنينة بضربة واحدة.» كان الولد ينظر إلى الطاولة. رفع الناشر إصبعه إلى أعلى وقال: «انظر إليها كيف تطير.» ولكن الولد كان يتابع التحديق في السدّة إلى درجة أنزل الناشر معها ذراعه.

بادر المرأة: «لماذا تدافعين عن هذا الرجل؟» داعبت المرأة على سبيل الإجابة الولد، قبلته في شعره، أخذته على ركبتيها وضمته.

الناشر: «ألا تحبين أن تكوني برفقتي؟ أشعر أنك لا تهتمين كثيراً بالولد إلا كي لا تضطري للاهتمام بي؛ لماذا تلعبين معي لعبة الأم وطفلها؟ هل بي شيء يخيفك مني؟».

أبعدت المرأة الولد وقالت: «أنت على حق ربما.» وقالت للولد: «إذهب إلى فراشك.»

لم يتحرك هذا الأخير؛ عندها حملته وذهبت به.

عندما رجعت لوحدها قالت: «ستيفان لا يرغب في النوم هذا المساء. الشمبانيا تذكره بسان سيلفستر حيث كان يحق له دائماً السهر حتى ما بعد منتصف الليل». جذب الناشر المرأة إليه على الكنبة: تركته يفعل.

قال الناشر ببطء: «أي كأس هو لك؟».

أشارت إليه فأخذه: «أرغب الآن في أن أشرب من كأسك يا ماريان.» ثم تنشق شعرها: «يعجبني أن شعرك لا تفوح منه إلا

Twitter: @ketab_n

رائحة الشعر. رائحة سرعان ما تصبح شعوراً. وطريقتك في المشي تعجبني أيضاً. فهي ليست طريقة خاصة كما هي مشية النساء عادة. أنت تمشين هكذا ببساطة وهذا شيء جميل.»

ابتسمت المرأة لنفسها ثم التفتت نحوه كأن رغبة الكلام أخذتها فجأة: «ذات يوم جاءت امرأة إلى هنا، سيدة. كانت تلاعب ستيفان عندما شم فجأة شعرها فقال: لك رائحة! قالت المرأة مرتعبة: رائحة طبخ؟ قال لها: لا، رائحة عطر. عندئذ ارتاحت السيدة تماماً.»

بعد قليل، نظر إليها الناشر وأخذ يحدق فيها كأنه غير عارف ماذا عليه أن يفعل. ناداها الولد لكنها لم تتحرك، فقط نظرت بدورها وكأن الفضول قد اعتراها. أجال النظر فيها: «عندك جارب مكرور»، أشارت بيدها أن هذا لا يهمها، ناداها الولد من جديد، نهضت ولكنها لم تذهب في الحال.

عندما رجعت من جديد إلى مكانها السابق قبالة الناشر، قالت: «ما يزعجني في البيت هنا هو الطريقة التي ينبغي الانحراف بها للذهاب من غرفة إلى أخرى، دائماً في زاوية مستقيمة ودائماً شمالاً. لا أعرف لماذا هذه الطريقة في التنقل تزعجني للغاية وبالحرف الواحد تعذبني». قال الناشر: «اكتبي شيئاً بهذا الخصوص، وإلا لن يعود هناك من وجود لماريان.»

ناداها الولد للمرة الثالثة وذهبت إليه في الحال.

بقي الناشر وحيداً وبدا عليه التعب. كان رأسه مائلاً قليلاً. قوّم قعدته؛ ابتسم كأنما من نفسه ثم ترك من جديد جسده مرتخياً وظهره منحنياً.

Twitter: @ketab_n

عادت المرأة وبقيت واقفة أمامه. رفع عينيه نحوها. وضعت يدها فوق جبينه ثم جلست قبالته. كانت قد وضعت يدها على الطاولة. أخذها وقبّلها. بقيا صامتين لوقت طويل.

قالت: «هل تريد أن أسمعك شيئاً من الموسيقى؟»

هزّ الناشر رأسه برفق كأنه كان ينتظر هذا السؤال: صمتا. الناشر: «ألا يرن الهاتف عندك أبداً؟»

المرأة: «أبداً تقريباً في هذه الأيام. نادراً جداً في الشتاء على كل حال. ربما من جديد في الربيع.»

بعد صمت طويل قالت: «أعتقد أن ستيفان غرق في النوم الآن.» ثم: «ولو لم تكن قد أصبحت تقريباً رب عملي كنت سأتجرأ وأظهر لك كم أنا تعبة.»

الناشر: «والقنينة فرغت فوق ذلك.»

نهض ورافقته حتى الباب. أخذ معطفه ووقف محني الرأس؛ كان جامداً. فجأة انتزعت المعطف من يديه وقالت: «آه! فلنشرب كأساً بعد. لقد شعرت فجأة أننا نفقد شيئاً ما في كل دقيقة من الوحدة، شيئاً لا يمكن استرجاعه أبداً. الموت كما تعلم. اعذرني لهذه الكلمة. إنها تؤلمني على كل حال. أرجو ألا تسيء فهمي. هناك قنينة أخرى من نبيذ برغونيا في المطبخ. إنه ثقيل وننام جيداً بعده.»

وقفا في غرفة الجلوس أمام النافذة يشربان النبيذ الأحمر. لم تكن الستائر مسدولة عندما نظرا إلى الحديقة التي يتساقط فيها الثلج.

أخبر الناشر: «منذ مدة قصيرة افترقت عن صديقة بطريقة غريبة

Twitter: @ketab_n

جداً تجعلني أرغب في أن أرويها لك. كان ذلك في التاكسي ذات ليل. أحطتها بذراعي وكنا ننظر في الاتجاه نفسه. كنا على ما يرام، ويجب أن تعلمي أيضاً أنها فتاة في ريعان الشباب، بالكاد تبلغ العشرين من العمر، وكنت متعلقاً بها كثيراً. رأيت عندئذ للحظة وجيزة وأنا أمر، شاباً يمشي على الرصيف. لم أستطع أن أميّز أية تفاصيل أخرى، كان الظلام دامساً في الشارع: رأيت فقط أن الرجل شاب.

«وفجأة خيّل لي أن الفتاة قربي ستدرك عند رؤية هذا الشبح في الخارج إلى جانب أي عجوز تجلس ملتصقة هنا في هذا التاكسي، في هذه اللحظة لن يسعها إلا أن تنفر مني! هذه الفكرة صدمتني وجعلتني أنزع ذراعي عن كتفها في الحال. تابعت الطريق معها بالطبع وأوصلتها حتى الباب ولكن قلت لها هناك إني لم أعد أرغب في رؤيتها. صرخت لها بأعلى صوتي قائلاً إن عليّ أن أختفي، إني ضجرت منها وإن كل شيء بيننا انتهى، ثم ذهبت في الحال راكضاً. أنا واثق أنها إلى اليوم لا تعرف لماذا تركتها. ربما هي لم تفكر في شيء عند رؤية الشاب على الرصيف، ربما لم تلحظه حتى...».

أنهى كأسه. صمتا ونظرا عبر النافذة التي تعبر أمامها من جديد العجوز مع كلبها ووجهت إليهما التحية على الفور؛ كانت تفتح مظلتها.

قال الناشر: «كان الأمر جيداً معك يا ماريان. لا ليس جيداً بل مختلفاً.»

Twitter: @ketab_n

توجها إلى الباب. الناشر: «سأسمح لنفسي أن أرن هاتفك من وقت لآخر ولو كنا لا نزال في عز الشتاء.»

عند عتبة الباب سألته ـ كان قد ارتدى معطفه ـ هل أتى في سيارته؛ كان الثلج يدخل مزوبعاً إلى البيت: «أوصلني سائق. أجل، إنه ينتظر في السيارة.»

المرأة «وجعلته ينتظر كل هذا الوقت؟».

الناشر: «إنه معتاد على ذلك.»

كانت السيارة متوقفة أمام باب المنزل والسائق في داخلها في العتمة. المرأة: «نسيت أن تعطيني الكتاب الذي عليّ أن أترجمه.»

الناشر: «لا يزال في السيارة.»

أشار إلى السائق فأحضر الكتاب على الفور.

قدمه الناشر للمرأة التي سألت: «إذاً تريد أن تختبرني؟»

الناشر بعد برهة: «الآن يبدأ الزمن الطويل لعزلتك يا ماريان!»

المرأة: «منذ فترة وجيزة والجميع يهددني» ثم إلى السائق الواقف بالقرب منه: «وأنت أتهددني أيضاً؟» ابتسم السائق مذعوراً.

طيلة الليل، كانت وحيدة في الرواق والكتاب في يدها. فوقها على الكوى كان الثلج يفرقع. أخذت تقرأ: «في البلد المثالي، أريد من رجل أن يحبني لذاتي ولما سأصيره» وحاولت أن تترجم إلى الألمانية... هزت كتفيها.

Twitter: @ketab_n

جلست في وضح النهار أمام الآلة الكاتبة، وضعت نظارتيها وقسمت الكتاب وفقاً للصفحات التي تريد ترجمتها كل يوم وسجلت التاريخ المتعلق بها: «ينتهي الكتاب في يوم ربيعي، تصفحت القاموس، نظفت بدبوس حرفاً في الآلة، مسحت الملابس بخرقة ثم كتبت وهي مترددة النص التالي: «حتى الآن، جميع الرجال أضعفوني. زوجي يقول عني: «ميشيل قوية»: هو يريد في الحقيقة أن أكون قوية في الأمور التي لا تهمه: الأولاد، الأعمال المنزلية، الضرائب. ولكنه يدمرني في عملي كما أتخيل. إنه يقول: «زوجتي امرأة حالمة، فإذا كان الحلم يعني أن نكون ما نحن فأنا إذاً أريد أن أكون حالمة.»

نظرت المرأة إلى المصطبة، ظهر الولد عليها نافضاً حذاءه وحقيبته في يده. دخل من الباب المشرف على المصطبة ضاحكاً. سألت المرأة ما الذي يضحكه.

الولد: «لم أرك بنظارتين من قبل.»

نزعت المرأة النظارتين ثم وضعتهما من جديد: «هل انتهت الدراسة اليوم؟»

«اليوم أيضاً ألغيت ساعتان.»

فيما كانت المرأة مستمرة في الضرب على الآلة الكاتبة، اقترب الطفل وجلس إلى جانبها. بقي عن قصد هادئاً تماماً. توقفت المرأة عن العمل، نظرت نصب عينيها: «أنت جائع، أليس كذلك؟» هزّ الولد رأسه نافياً. المرأة: «هل يزعجك أن أقوم بعمل ما؟» أخذ الطفل بالابتسام.

Twitter: @ketab_n

فيما بعد، راحت تعمل في غرفة النوم أمام طاولة بالقرب من النافذة التي تطل منها أشجار الصنوبر، ظهر الولد عند الباب وبرفقته صديقه الضخم: «الطقس بارد جداً في الخارج ولا يمكننا الذهاب إلى عند جورغن لأنهم ينظفون البيت بكامله.» المرأة: «البارحة أيضاً كانوا ينظفون البيت بكامله.» هزّ الولد كتفيه وعادت المرأة إلى عملها.

بقي الولدان عند عتبة الباب دون أن يتحركا. لاحظت المرأة ذلك والتفتت إليهما.

بعد ذلك وفيما كانت تكتب، سمعت ضجة أسطوانة آتية من الغرفة المجاورة: أصوات ممثلين يقلّدون صراخ أولاد وأقزام. نهضت، وعبرت الرواق ودخلت إلى الغرفة. كانت الأسطوانة تدور على «ألكتروفون» صغير والغرفة خالية. أطفأت الجهاز فبرز عندئذ الولدان من وراء الستائر وهما يصيحان صيحات كبيرة كأنهما يريدان إخافتها. ونجحا في مرادهما لأنهما كانا قد بدّلا ملابسهما أيضاً.

قالت لهما: «إسمعا. ما أفعله هو عمل حتى ولو لم يكن يبدو لكما أنه كذلك. ومن جهتي يهمني ألا أكون منزعجة لأنني لا أستطيع التفكير في شيء آخر في الوقت نفسه، كما عندما أقوم بتحضير الطعام مثلاً».

نظر الولدان نصب أعينهما وأخذا يقهقهان الواحد تلو الآخر.

المرأة: «افهماني من فضلكما.»

الطفل: «هل تأتينا بشيء نأكله؟»

Twitter: @ketab_n

خفضت المرأة رأسها؛ عندها قال الولد غاضباً: «أنا أيضاً حزين، لست وحدك.»

كانت جالسة في غرفة النوم أمام الآلة الكاتبة دون أن تعمل. البيت ساكن. في الرواق اقترب الولدان وهما يتوشوشان ويقهقهان. فجأة أزاحت المرأة الآلة جانباً فوقعت على الأرض.

في متجر كبير مجاور، كانت تكدس رزماً ضخمة في عربة تسوّق من الطراز الكبير تجرها من قسم إلى آخر في المبنى الكبير حتى صارت طافحة. وقفت مع أناس كثيرين في صف طويل أمام الصندوق؛ أمامها عربات الزبائن ممتلئة تماماً كعربتها. أمام موقف المتجر الكبير، جرّت العربة الثقيلة التي لم تكفّ دواليبها عن الانحراف، حتى السيارة. ملأت السيارة والمقاعد الخلفية أيضاً حتى تعذرت الرؤية من الكوة الخلفية. في البيت، وضعت المشترياتِ في البهو لأن الأدراج والبراد كانت ممتلئة.

في الليل وفي غرفة الجلوس، وضعت ورقة في الآلة وبقيت جامدة أمامها. بعد وقت قليل وضعت ذراعيها على الآلة، ثم رأسها بين ذراعيها.

في وقت متأخر من الليل كانت تنام جالسة في الوضع نفسه.

استفاقت، أطفأت النور وخرجت من الغرفة. على خدها أثر كمّ الكنزة. وحدها مصابيح الشوارع لا تزال مضاءة في المجمّع.

Twitter: @ketab_n

ذهبا إلى زيارة برونو في مكتبه. عبر النافذة يشاهد المنظر الشامل للمدينة. كان برونو جالساً معها والطفل يقرأ على طاولة في الزاوية. نظر إلى الطفل: «فرانشيسكا تقول إن ستيفان في هذه الأيام عنيد حتى الوقاحة. ثم أضافت أنه لم يعد يغتسل وهذا برأيها يعني أن...»

المرأة: «وماذا قالت فرانشيسكا أيضاً؟»

ضحك برونو ابتسمت المرأة له.

عندما مدّ يده نحوها، تراجعت. قال فقط: «ماريان» المرأة: «اعذرني.»

برونو: «ولكني كنت أريد فقط أن أتفحص معطفك. هناك زر ناقص.»

صمتا بشكل يائس.

قال برونو للولد: «ستيفان، سأريك كيف أتصرف لأرهب الناس الذين يأتون هنا إلى المكتب.» أخذ زوجته من ذراعها، وهو ينظر إلى الولد بابتسامة ساخرة، مستعيناً بها من أجل التجربة الآتية: «في بادىء الأمر أحصر ضحيّتي وكرسيها في مساحة ضيقة جداً بحيث تحس نفسها عاجزة. أتكلم قريباً جداً من وجهها، إذا كانت الضحيّة شخصاً متقدماً في السن ـ همس فجأة ـ أتكلم بصوت منخفض جداً حتى يعتقد أنه أصبح أصمّ. ومن المهم أيضاً ارتداء نوع معين من الأحذية نعلها مطاطي كهذ الحذاء مثلاً: إنها أحذية في خدمة

Twitter: @ketab_n

السلطة. ويجب أن تكون مطلية ولماعة. يجب التوصل إلى إثارة هالة من القوة، والأهم من ذلك كله هو الوجه ذو الرهبة.» جلس أمام زوجته وأخذ يحدق فيها؛ وفي نفس الوقت وضع مرفقه على الطاولة، طوى ذراعه وأغلق قبضته ولكن ليس بشكل كلي: بقي إبهامه إلى أعلى. وفيما هو يحدّق على هذا النحو، مطّ فمه إلى جانب واحد وقال: «لقد أوصيت من أميركا على مرهم خاص: أضعه حول العينين فيمنعني من الاختلاج، أضعه حول الفم فيمنع التشنج.» وضع قليلاً من المرهم حول عينيه: «وهذه هي نظرة السلطة التي بفضلها آمل أن أصبح قريباً عضواً في مجلس الإدارة.» كانت عيناه تحدقان فيما ينظر المرأة والولد إليه.

توقف فجأة وقال للولد: «الأحد المقبل نذهب إلى مَحْيا الحديقة النباتية لمشاهدة النباتات اللاحمة. أو إلى القبة الفلكية الاصطناعية لمشاهدة صليب الجنوب مفروضاً في قبة وكأنه في سماء ليلية ـ كما لو كنا حقيقة موجودين في بحار الجنوب»، رافقهما إلى الباب وهناك همس شيئاً في أذن المرأة. نظرت إليه وهزت رأسها غير موافقة. قال برونو بعد لحظة: «لا شيء توضح يا ماريان»، واقتادهما إلى الخارج. عندما صار لوحده، ضرب وجهه بقبضته.

خرجت المرأة والولد من البناء إلى شارع هادىء. أغمضا أعينهما منبهرين بالضوء الضعيف لما بعد الظهر الشتائي. اتجها إلى وسط المدينة عبر شارع مزدحم بالسيارات تحيط به المصارف يميناً وشمالاً ينعكس الواحد منها في الآخر. عند ضوء الإشارة الأحمر قلّد الولد

Twitter: @ketab_n

شخص المشاة في الضوء، متوقفاً ثم هامّاً بالعبور. في منطقة المشاة بقي الولد جامداً أمام واجهات كثيرة فيها كانت المرأة تنتظره على أبعد من ذلك أمامه. رجعت وجرّته. في زوايا الشارع كلها ألصقت النشرة المسائية لجريدة يومية واسعة الانتشار ودائماً بالعناوين الكبيرة ذاتها. مع بداية الغسق عبرا جسراً فوق النهر، كان الازدحام شديداً. كان الولد يتكلم. أومأت له المرأة بأنها لا تسمع شيئاً فتوقف. مشيا بمحاذاة النهر في الغسق ومشى الولد على إيقاع مختلف عن المرأة. كان يتوقف فجأة ثم يركض بعيداً أمامها، وكان عليها إما الإنتظار وإما اللحاق به. لبرهة، مشت بالقرب منه مشيرة بإصرار بالخطوات التي تقوم بها أن عليه أن يمشي بسرعة أكبر، كانت تشجعه بواسطة إيماءات. دقت رجلها عندما رأته يحدق وهو شبه مرئي في العتمة في دغل قريب، مما جعلها تكسر كعب حذائها. دخلت إلى المراحيض العامة على حافة النهر مع الولد الذي لم يكن يجرؤ على الذهاب وحيداً إلى مراحيض الرجال: انفردا في حجرة؛ أغمضت المرأة عينيها وأسندت ظهرها إلى الباب، فوق الحائط الفاصل عن الحجرة المجاورة ـ لم يكن الحائط متصلاً بالسقف ـ ظهر فجأة رأس رجل يقفز في الهواء مرة ثم مرة أخرى، ثم ظهر وجه الرجل الساخر عند قدميها لأن الحائط لم يكن أيضاً متصلاً بالأرض. هربت مع الولد من المراحيض، وهرولت راكضة وهي تتعثر بسبب كعبها المكسور. عندما مرّا أمام بيت أرضي شاهدا عبر جهاز تلفزيون مضاء طائراً كبيراً يحلق في المقدمة. في الشارع سقطت عجوز على رأسها، اصطدمت سيارتا رجلين ببعضهما فركض الواحد باتجاه الآخر، كان الأول يحاول أن يضرب الثاني الذي أمسكه فقط. كان المساء قد هبط

Twitter: @ketab_n

تقريباً عندما أصبحا في وسط المدينة، بين عمارتين ضخمتين للمصارف قرب محلة لبائع سكاكر حيث أكل الولد كمّونيّة؟ كان ضجيج المارة صاخباً جداً مثل كارثة تحصل بانتظام. اقترب رجل من البائع منحنياً وطلب ضاغطاً يده على قلبه كوباً من الماء وابتلعه مع حبة الدواء دفعة واحدة، تقوقع متجمعاً على نفسه. كانت أجراس المساء تقرع في الكنائس؛ مرّت عربة إطفاء ثم تبعتها عدة سيارات للإسعاف مع وامض أزرق وصفارة إنذار. انزلق الضوء على وجه المرأة، نقاط من العرق تتلألأ على جبهتها وشفتاها مشققتان وجافتان.

في البيت وفي وقت متأخر من المساء، مكثت قرب حائط غرفة الجلوس الطويل الخالي من النوافذ، في الضوء الخفيف لمصباح المكتب. صمت عظيم ونباح بعيد. ثم الهاتف؛ تركته يرن عدة مرات. قالت اسمها بصوت منخفض. قال لها الناشر بالفرنسية إن صوتها غريب جداً اليوم.

المرأة: «ربما ذلك عائد إلى انهماكي في العمل. لقد لاحظت أن هذا يغير صوتي.»

الناشر: «هل أنت وحدك؟»

المرأة: «الولد معي كالعادة. إنه نائم.»

الناشر: «أنا أيضاً وحيد. الليل صافٍ. أرى حتى التلال التي تسكنين فيها.»

Twitter: @ketab_n

المرأة: «سأسر برؤيتك في وضح النهار.»

الناشر: «هل تعملين بجد يا ماريان؟ أم أنك فقط تتنقلين من كرسي إلى آخر هناك في صحرائك؟»

المرأة: «ذهبت اليوم إلى المدينة مع ستيفان. إنه لا يفهمني، فهو يجد المقاعد ومحطات البنزين ومحطات المترو أمراً رائعاً.»

الناشر: «ربما في هذه الأشياء جمال لا يمكننا نحن أن نراه بعد. أنا أيضاً أحب المدينة. من على شرفة دار نشري أرى حتى المطار الذي تحط فيه طائرات أو تنطلق غير مسموعة في البعيد. هذا يعطي صورة ناعمة جداً تحيي أعمق أعماقي.» وبعد برهة أضاف: «ماذا ستفعلين الآن؟»

المرأة: «أريد أن أصير جميلة.»

الناشر: «إذاً سنرى بعضنا على هذه الحال؟»

المرأة: «أريد أن أصير جميلة لأتابع العمل. رغبت في ذلك فجأة.»

الناشر: «هل تتناولين حبوباً؟».

المرأة: «أحياناً لأبقى مستيقظة.»

الناشر: «أفضل ألا أقول شيئاً عن هذا الأمر لأن كل إنذار بالنسبة لك هو بمثابة تهديد، حاولي في الأخص ألا تتخذي هذه النظرة الحنونة والحزينة التي يملكها العديد من المترجمين العاملين عندي.»

تركته يقفل الخط أولاً ثم ذهبت لتبحث في الخزانة عن فستان

Twitter: @ketab_n

طويل من الحرير. جرّبت المرأة أمام المرآة عقداً من اللؤلؤ ثم انتزعته في الحال. نظرت إلى صورتها الجانبية صامتة.

كان المجمع يستلقي في الفجر، المصابيح أطفئت منذ قليل. المرأة جالسة دون حراك إلى طاولة العمل.

ذهبت وهي مغمضة العينين في جميع الاتجاهات، ثم استدارت على عقب واحدة مغيرة الاتجاه ثم انحرفت وانحرفت أيضاً بسرعة كبيرة الى الوراء. وجدت نفسها في المطبخ أمام الحوض حيث يتكدس الجلي المتسخ. وضعته في آلة غسل الصحون، أدارت «الترانزيستور» على خزانة الصحون فتدفقت منه في الحال الموسيقى الصباحية وأصوات المذيعين المفعمة بالحماس. أطفأت الجهاز، انحنت، فتحت الغسّالة وأخرجت منها حزماً متشابكة من الشراشف الرطبة وتركتها موضوعة في أرض المطبخ. حكّت جذور شعرها بحيوية وبكامل يدها حتى نزف الدم قليلاً.

فتحت صندوق البريد أمام باب المنزل، كان مليئاً بالإعلانات والمطبوعات والرسائل الدعائية. دعكت هذه الأوراق ومزقتها. كانت تروح وتجيء في البيت قائمة بأعمال منزلية، تتوقف، ترجع، تنحني لتنظيف بقعة في مكان ما أو لتلتقط في طريقها حبة أرزّ وحيدة وتحملها الى سلة القمامة. جلست، نهضت، قامت ببضع خطوات ثم جلست من جديد. تناولت مدرجة ورق موجودة في الزاوية، نشرتها ثم لفتها من جديد ووضعتها أخيراً الى جانب مكانها السابق.

كان الولد جالساً هناك يراقبها وهي تتحرك حوله بطريقة متقطعة. نظفت الكنبة التي كان جالساً عليها بالفرشاة وأشارت إليه بالنهوض.

Twitter: @ketab_n

ما إن نهض حتى دفعته بمرفقها وشرعت تنظف المقعد الذي لم يكن متسخاً. تراجع الولد قليلاً وبقي في مكانه جامداً. رمته بالفرشاة فجأة بكل قواها ولكنها لم تصب سوى قدح ما لبث أن تحطم. ثم تقدمت وهي تشد قبضتيها باتجاه الولد الذي كان فقط يراقب.

قرع الباب: في آن واحد أرادا الذهاب لفتحه. دفعت الولد الى الخلف فسقط على ظهره.

عندما فتحت الباب، لم تجد أحداً، خفضت عينيها: كان صديق الولد الضخم مقرفصا هناك ويضحك ساخراً.

جلست جامدة في غرفة الجلوس فيما كان الولد وصديقه الضخم يقفزان من الكراسي الى الوسائد وهما يغنيان بصوت عالٍ: «الغائط يقفز فوق البول والبول فوق الغائط، والغائط يقفز فوق اللعاب...» كانا يصيحان ويضحكان بحدة، يتهامسان، ينظران الى المرأة ويشيران إليها ثم يضحكان من جديد، لم يتوقفا والمرأة لم تتحرك.

كانت جالسة أمام الآلة الكاتبة. اقترب الولد منها على رؤوس أصابعه واتكأ عليها، دفعته بكتفها ولكنه بقي واقفاً قربها. جذبته المرأة إليها وضغطت فجأة على عنقه، هزّته، ثم تركته، وأشاحت فقط نظرها.

أثناء الليل، كانت المرأة جالسة إلى الطاولة. شيء ما تصاعد من حافة عينيها السفلى، وصل الى الأحداق فجعلها تلمع؛ كانت تبكي بصمت ودون حركة.

Twitter: @ketab_n

كانت تمشي في وضح النهار على طريق مستقيمة وسط منظر جليدي مسطّح دون أشجار. تابعت دائماً الى الأمام. عند حلول الظلام كانت لا تزال تمشي هكذا.

في سينما الضاحية الصغيرة، جلست وقربها الولدان وسط الضجة الفظيعة للصور المتحركة. أغمضت عينيها. ثم مال رأسها وسقط على كتف الولد الذي كان يتابع النظر الى الفيلم فاغراً فمه. نامت هكذا مسندة رأسها الى كتف الولد حتى نهاية الفيلم.

أثناء الليل، وقفت الى جانب الآلة الكاتبة وقرأت ما كانت قد كتبته: «سأل الزائر: «ألا يساعدُك أحد؟ ـ لا، أجابَت. الرجل الذي أحلم به سيكون ذلك الذي يحبّ فيَّ المرأة التي لم تعد تابعة له. ـ وماذا ستحبين فيه؟ ـ هذا النوع بالذات من الحب.» هزّت أيضاً كتفيها.

كانت مستلقية في سريرها مفتحة العينين. على طاولة السرير كوب وسكين. في الخارج قرع أحدهم حصيرة النافذة بقوة أخرجت شفرة السكين وارتديت مئزراً. كان هذا صوت برونو: «افتحي فوراً وإلا خلعت الباب، افتحي وإلا هدمت البيت!» ألقت السكين، أشعلت الضوء، فتحت باب المصطبة وأدخلت برونو. كان يرتدي

Twitter: @ketab_n

قميصاً ومعطفه مفتوح. وقف الواحد قبالة الآخر وذهبا عبر الرواق الى غرفة الجلوس حيث كان نور مضاء. وهناك أيضاً وقف الواحد قبالة الآخر.

برونو: «هل تتركين النور مضاء في الليل؟» نظر حوله: «لقد غيرت أيضاً أماكن الأثاث.» تناول بضعة كتب: «الآن، كتب مختلفة تماماً». اقترب من المرأة: «جائز أيضاً أن تكوني تخليت عن حقيبة الزينة التي أحضرتها لك من الشرق الأقصى.» المرأة: «ألا تريد أن تخلع معطفك؟ ـ هل ترغب في كأس من الفودكا؟»

برونو: «ناديني على الفور بـ حضرتك!» وبعد برهة: «وأنتِ؟ هل أصبت بالسرطان؟»

لم تجب المرأة.

برونو: «هل التدخين مسموح هنا؟»

جلس فيما بقيت هي واقفة.

برونو: «أنت إذاً تتمتعين بوقتك، هكذا وحيدة مع ولدك في بيت جميل دافىء مع حديقة ومرآب، في الهواء النقي! ولكن كم تبلغين من العمر؟ عمّا قريب ستغزو عنقك التجاعيد وينبت الشعر على نمش وجهك. ستصير ساقاك نحيلتين مثل ساقي ضفدعة ومن فوق، جسمك كيساً ضخماً. ستكبرين يوماً بعد يوم قائلة إن هذا لا يعني لك شيئاً الى أن يأتي يوم وتشنقين نفسك. ستجعلين حياتك، وأنت على هذه الفظاظة، نتنة حتى القبر؛ كيف ستتصرفين لتمضية الوقت حتى ذلك اليوم؟ ستجرين نفسك هنا وهناك وتقضمين أظافرك، أليس كذلك؟»

Twitter: @ketab_n

المرأة: «لا تصرخ، الولد نائم.»

برونو: «تقولين الولد ـ كأنه لم يعد له اسم بالنسبة لي! ودائماً أنت هكذا عاقلة! أنتن النساء، بمنطقكن الرث، بتفهمكن النزق لكل شيء ولكل انسان! وأبداً لا تشعرن بالسأم طالما أنتن لا تصلحن لشيء. أنتن دائماً جالسات في مكان ما ومفعمات حماساً لإمضاء الوقت. هل تعرفين لماذا لن تصبحين أي شيء إطلاقاً؟ لأنكن لم تعتدن على أن تثملن بمفردكن. تتسكعن داخل شققكن المرتبة كصور مدّعية لأنفسكن. تتظاهرن بأنكن غامضات، تسقسقن لفرط تفاهتكن، تخنقن الآخرين، كشريكات معترف بكن، بإنسانيتكن المحدودة، مثل آلات تُخضع للوصاية كل ما هو حي. تزحفن في كل صوب تشتمّين الأرض حتى يلتهمكن الموت.» وبصق الى جانبه: «أنت وحياتك الجديدة! لم أر في حياتي قط امرأة غيرت حياتها بشكل يدوم، لا شيء سوى قفزات جانبية ـ وبعد ذلك تبدأ الأغنية القديمة المكرورة. أتعرفين؟ ما تفعلينه الآن ستتصفحينه فيما بعد في قصاصات جرائد مصغرّة كحدث حياتك الوحيد! وستدركين عندها أنك لم تفعلي شيئاً سوى أنك جريت وراء الموضة؛ موضة ماريان الشتائية!»

المرأة: «حضرت كل ذلك مسبقاً، أليس كذلك؟ أنت لا ترغب إطلاقاً في التكلم معي أو في أن تكون معي.»

برونو: «كنت لأفضل الكلام مع شبح!»

المرأة: «تبدو حزيناً بشكل مرعب يا برونو!»

برونو: أنت لا تقولين ذلك إلا لإضعافي.»

Twitter: @ketab_n

صمتا طويلاً. ثم أخذ برونو يضحك؛ التفت، انتحب قليلاً ثم ما لبث أن تمالك نفسه: «أتيت الى هنا سيراً على الأقدام. كنت أريد أن أقتلك.» اقتربت المرأة منه فقال: «لا تلمسيني، لا تلمسيني أرجوك.» وبعد فترة: «أحياناً أفكر أنك تختبرينني وأن ما يحدث يهدف إلى وضعي تحت التجربة. هذه الفكرة تطمئنني قليلاً.» وبعد قليل: «أمس فكرت للحظة أنه أمر لطيف جداً في أية حال أن يكون الله موجوداً.»

نظرت إليه المرأة ملياً وقالت له: «أرى أنك حلقت لحيتك.»

همّ برونو بحركة من يده: «مضى على ذلك أسبوع ـ وأنتِ لديك ستائر جديدة.»

المرأة: لا إنها الستائر ذاتها ـ سيفرح ستيفان إذا كتبت له.»

هزّ برونو رأسه وابتسمت المرأة.

سألها لماذا تضحك.

قالت إنها لم تنتبه إلا منذ قليل الى أنه الناضج الوحيد الذي كلّمته منذ أيام عديدة.

بعد أن مكثا طويلاً هناك واقفين يقومان بحركات صغيرة يرتاحان إليها، سألها برونو كيف حالها.

قالت المرأة بهدوء شديد كأنها لم تكن تتكلم عن نفسها: «يتعب المرء بسرعة حين يكون وحيداً في شقة.»

رافقته إلى الشارع. سارا جنباً إلى جنب حتى كشك الهاتف.

Twitter: @ketab_n

توقف برونو فجأة، تمدد على الأرض، الوجه مقابل الأرض، فرفصت المرأة قربه.

في الصباح البارد، كانت المرأة جالسة على الكنبة الهزّازة على الشرفة دون أن تتأرجح. وقف الولد بجانبها متأملاً النفس المتصاعد من فمها. كانت المرأة تنظر إلى البعيد وأشجار الصنوبر تنعكس في النافذة وراءها.

في البلدة الصغيرة، كانت تسير في المساء عبر شوارع شبه مقفرة تقريباً، وكأنها ذاهبة إلى هدف ما، توقفت أمام نافذة كبيرة مضادة محاذية للأرض. هناك رأت جماعة من النسوة جالسات في ما يشبه الصف المدرسي حيث يوجد لوح أسود تخط عليه فرانشيسكا بالطبشور منحنىً بيانياً في الاقتصاد السياسي، دون أن يكون ما تقوله مسموعاً. أغلقت الدفاتر وانضمت فرانشيسكا إلى الأخريات، قالت شيئاً ما فأخذت النساء يضحكن بشكل خافت كأنما لذواتهن، كانت هناك امرأتان متعانقتين. امرأة تدخن الغليون. واحدة أخرى تمسح خدّ جارتها. توقفت فرانشيسكا عن الكلام ثم رفعت بعض النسوة أيديهن. عدّت فرانشيسكا الأيدي فيما رفعت نساء أخريات أيديهن. ثم طرقن جميعهن الطاولة بقبضاتهن كدليل على الموافقة: بدت اللوحة التي تؤلفها النساء هادئة كأنها لا تخص جمعية بل أفراداً يلتفت الواحد منهم إلى الآخر لأنهم بحاجة إلى ذلك.

ابتعدت المرأة عن النافذة. مشت عبر المدينة الصغيرة المقفرة، عندما مرت قرب الكنيسة سمعت تراتيل وعزف أرغن. دخلت إلى الكنيسة وتنحت جانباً. كان هناك عدة اشخاص واقفين بين المقاعد

Twitter: @ketab_n

يرتلون وراء الكاهن. كان أحدهم يسعل خلال صمت الفواصل. وسط الناس الواقفين طفل جالس يضع أصبعه في فمه. كان الأرغن يزعق. بعد قليل، خرجت المرأة.

كانت تتنقل في الممر الليلي باتجاه المجمع وهي تقوم بحركات كأنها تتكلم مع نفسها.

في الليل، وحيدة في المطبخ، شربت كوباً من الماء. ثم حدث صمت كان وحده قلبها يخفق خلاله.

في وضح الظهيرة، كانت المرأة وفرانشيسكا متدثرتين تجلسان الواحدة إلى جانب الأخرى في كنبتين هزازتين. كانتا تنظران إلى الولدين اللذين كانا يكسران شجرة الميلاد اليابسة ويشعلان بها ناراً.

بعد وقت طويل قالت فرانشيسكا: «أفهم جيداً لماذا لا تستطيعين الانضمام إلينا. أنا أيضاً في بعض اللحظات خاصة حين أغادر الشقة الهادئة لحضور الاجتماعات، ينتابني تعب مميت لفرط ما أشمئز من وجودي في المجتمع...»

المرأة: «أنتظر الـ لكن».

فرانشيسكا: «في السابق، كانت الحال كذلك بالنسبة لي، ذات يوم مثلاً لم يعد بوسعي أن أتكلم، كنت أتواصل مع الآخرين بالكتابة على قصاصات ورق. وأيضاً كنت أمكث ساعات بطولها أمام الخزانة المفتوحة وأنا أبكي لأنني لم أكن أعرف ماذا عليّ أن أرتدي، ذات يوم ذهبت مع صديقي إلى مكان وفجأة توقفت، وقفت جامدة هناك وكان هو يحاول إقناعي. في ذلك الوقت، كنت في الحقيقة أكثر شباباً...

Twitter: @ketab_n

ألا تشعرين أبداً بالحاجة لأن تكوني سعيدة مع الآخرين؟»

المرأة: «لا، قد لا يروقني أن أكون سعيدة إنما مطمئنة كحدّ أقصى. أخاف من السعادة وأعتقد أنني قد لا أحملها هنا في رأسي. قد أصبح مجنونة إلى الأبد أو أموت. أو قد أقتل أحداً.»

فرانشيسكا: «إذاً تريدين البقاء هكذا لوحدك طيلة حياتك؟ ألا ترغبين في أن يكون لك صديق روحاً وجسداً؟»

صرخت المرأة: «بلى، بلى! ولكني لا أحب أن أعرف من هو. حتى ولو أمضيت طيلة الوقت برفقته، لا أريد أبداً التوصل إلى معرفته. ومع ذلك سأحب شيئاً ما» ـ ابتسمت وكأنها تضحك من نفسها ـ، «أن يكون عكشاً وأخرق حقاً: أنا نفسي لا أعرف لماذا» توقفت: «آه يا فرانشيسكا أنا أتكلم كالمراهقات.»

فرانشيسكا: «لكني أعرف ما معنى أن يكون المرء أخرق! أليس والدك كذلك؟ حين مدّ لي يده من فوق الطاولة خلال زيارته الأخيرة، فأسقطها كلها في حق الخردل.»

أخذت المرأة تضحك. نظر الولد المنهمك في اللعب باتجاهها، كأن الأمر غير عادي عند والدته.

فرانشيسكا: «على فكرة، إنه آتٍ هذا اليوم بعد الظهر في القطار. لقد رجوته في برقية أن يأتي. إنه في انتظار أن تأتي لإحضاره.»

قالت المرأة بعد فترة: «ما كان عليك أن تفعلي ذلك. لا أرغب الآن في رؤية أحد. كل شيء يصير غير مؤذٍ برفقة الآخرين»

فرانشيسكا: «يبدو لي أنك الآن لا ترين الآخرين إلا مجرد ضجيج بسيط في شقتك.»

Twitter: @ketab_n

وضعت يدها على ذراع المرأة. قالت المرأة: «في الكتاب الذي أترجمه حالياً جملة لبودلير تقول: النشاط السياسي الوحيد الذي كان يؤيده هوالتمرد. وأنا أيضاً خطر لي فجأة: النشاط السياسي الوحيد أؤيده أنا هو جنون القتل.»

فرانشيسكا: ولكننا لا نعرفه إلا عند الرجال.»

المرأة: «على فكرة، كيف حال برونو؟»

فرانشيسكا: «برونو خلق كي يكون سعيداً، لذا هو في حيرة شديدة الآن. وفي غاية التصنع! إنه يفقدني أعصابي. سأطرده.»

المرأة: «آه فرانشيسكا! تقولين هذا عن الجميع. وفي النهاية أنتِ دائماً من تُترك.»

دهشت فرانشيسكا في البداية وكانت على وشك القيام بحركات معارضة ثم أجابت بعد وقت قليل: «في الواقع، معك حق.»

تبادلا النظرات. ثم صرخت المرأة باتجاه الولدين اللذين أدارا وجهيهما الواحد للآخر وكأنهما أصبحا عدوين ـ الولد البدين حزين بالأحرى: «ها، أيها الولدين، تصالحا!»

ابتسم الولد البدين منفرجاً، واتجها منخفضين الرأس الواحد نحو الآخر مترددين.

كانت المرأة والولد ينتظران في المحطة القليلة العمق للمدينة الصغيرة، بعد دخول القطار في المحطة، أشار الوالد وهو عجوز يرتدي نظارتين، من وراء نافذة. في السابق كان كاتباً مشهوراً أما

Twitter: @ketab_n

الآن فهو يكتب في الصحف قصصاً قصيرة وبعض المحاولات. عند نزوله، لم يتمكن من فتح بوابة القاطرة ففتحتها المرأة من الخارج وساعدته على النزول إلى الرصيف. نظرا إلى بعضهما ملياً ثم فرحا أخيراً. هزّ الوالد كتفيه ونظر حواليه، مسح شفتيه وقال إن رائحة يديه بشعة من المعدن في القطار.

في البيت جلس هو والولد على الأرض. كان الولد يفتش في حقيبة السفر عن الهدايا التي أحضرت له: بوصلة ولعبة نرد. دلّ على أشياء مختلفة من الداخل والخارج وكان يسأل عن ألوانها. كان الجد يجيب دائماً بشكل خاطىء. الولد: «هل ما زلت دلتونياً؟» الجد: «الواقع انني لم أتعلم قط تمييز الألوان.» وصلت المرأة وفي يدها صينية فضية عليها آنية زرقاء. تصاعد البخار عندما سكبت الشاي وأدفأ الوالد يديه فوق الإبريق. فيما كان جالساً سقطت من جيبه قطع نقدية وحمالة مفاتيح. لملمت المرأة الأشياء: «ألا تزال جيوبك ممتلئة بالقطع النقدية؟»

الوالد: المحفظة التي أهديتني إياها أضعتها في الحال وأنا في طريق العودة المرة السابقة.»

بينما كانا يشربان حكى: «منذ مدة قصيرة، كنت أنتظر زيارة. عندما ذهبت لأفتح الباب، رأيت عندئذ أن الزائر مبلل بالمطر من رأسه حتى قدميه. ولكني كنت قد انتهيت للتو من تنظيف الشقة كلها! بينما كنت أدعوه للدخول وأصافحه، لاحظت أنني صرت في الخارج واقفاً على مساحة القدمين أنظف جذائي بحيوية قصوى كما لو انني أنا الزائر المبلل.» وقهقه.

Twitter: @ketab_n

المرأة: «وهل ما زلت تشعر غالباً بالذنب؟»

وضع الوالد يده على فمه وهو يقهقه ضاحكاً: «الأمر الأكثر إزعاجاً سيكون أن أتمدد فاغراً فمي على فراش الموت.» ابتلع شايه بارتباك.

ثم قالت المرأة: «هذه الليلة ستنام في غرفة برونو يا أبي.»

أجاب الوالد: «على كلٍّ أنا راحل غداً».

في غرفة الجلوس عند المساء، كانت المرأة تكتب والوالد جالس على مبعدة منها أمام زجاجة نبيذ يراقبها وهي تعمل. ثم اقترب منها، رفعت رأسها دون أن يزعجها ذلك، انحنى فوقها: «لاحظت أن في قميصك زراً ناقصاً.» سحبت قميصها وأعطته إياه.

فيما كانت تتابع الضرب على الآلة الكاتبة، كان الوالد يخيط لها الزر من جديد بإبرة وخيط من خرج فندق. نظر إليها من جديد. شعرت بذلك ونظرت إليه نظرة متسائلة. اعتذر ثم قال: «لقد ازددت جمالاً يا ماريان!» ابتسمت.

أنهت عملها وصححته قليلاً. عبثاً حاول الوالد فتح زجاجة نبيذ جديدة. فجاءت لمساعدته. ذهب إلى المطبخ ليحضر لها كأساً. صرخت مشيرة إلى مكان الأكواب. لم تسمع إلا حرتقة طويلة ثم صمتاً، فذهبت أخيراً لمساعدته.

كانا جالسين الواحد قبالة الآخر. قام الوالد ببعض الحركات قالت المرأة: «تكلّم. من أجل ذلك جئت، أليس كذلك؟»

Twitter: @ketab_n

من جديد قام الوالد ببعض الحركات وأشار أن لا: «ألن نذهب للتنزه قليلاً؟» دلّ بيده إلى عدة اتجاهات ثم حكى: «عندما كنت طفلة، لم تكوني تحبين قط التنزه معي. ما إن أقول لك كلمة نزهة حتى ترفضين. ولكن إذا كان الأمر يتعلق بنزهة مسائية كنت تتأهبين فوراً.»

عبرا في الليل وهما ذاهبان إلى غرفة الهاتف الطريق المنفذ في جوار المرائب حيث ما زالت مروحات السيارات تطقطق من وقت لآخر. أمام الغرفة قال الوالد: «عليّ أن أجري اتصالاً سريعاً.» المرأة: «بإمكانك أن تقوم بذلك عندي» قال الوالد ببساطة: «صديقتي تنتظر!» كان قد دخل إلى الغرفة، كان يتكلم بصوت غير مفهوم خلف الزجاج المخطط قائماً بحركات كثيرة.

ارتقيا التلة. سمعا لدى مرورهما أمام المجمع النائم لمرة واحدة فقط جريان طرادة ماء.

المرأة: «ماذا قالت لك صديقتك؟».

الوالد: «كانت تريد أن تعرف إذا أخذت دوائي.»

المرأة: «هل هي امرأة العام الماضي نفسها؟»

قام الوالد ببعض الحركات: «المرأة الحالية تقيم في مدينة أخرى.»

كانا يسيران على الحدود العليا للمجمع حيث تبدأ الغابة، كان الثلج يتساقط ندفاً صغيرة يسمع صوت سقوطها بين أوراق السنديان اليابسة، أو متكومة على الطريق فوق البرك المتجلدة التي ملأها بول الكلاب. توقفا ونظرا إلى الأنوار المضاءة في السهل. كان أحدهم

Twitter: @ketab_n

يعزف، في أحد البيوت المتداخلة في الأسفل، على البيانو مقطوعة:

الرسالة إلى إليز.

سألت المرأة: «هل أنت راضٍ يا أبي؟» هزّ الوالد رأسه وقال كأن الحركة وحدها لا تكفي: «لا!»

المرأة: «هل تتصور كيف يمكن أن نعيش؟».
الوالد: «توقفي، يكفي.»

تابعا السير بمحاذاة حدود الغابة. كانت المرأة ترفع أحياناً وجهها فتلامسه ندف الثلج. نظرت إلى الغابة حيث لا شيء يتحرك من خفة الثلج المتساقط، على مسافة بعيدة، خلف الأشجار المتناثرة خزان يجري في داخله خيط رفيع من المياه محدثاً صوتاً عذباً.

سألت المرأة: «هل ما زلت تكتب؟»

ضحك الوالد: «لنقل إنك تريدين معرفة ما إذا كنت سأتابع الكتابة حتى نهاية حياتي، أليس كذلك؟» التفت نحوها: «أعتقد أنني في وقت ما بدأت أعيش في الاتجاه الخطأ ـ لا أحمل الحرب أو الظروف الخارجية المسؤولية. منذ ذلك الحين تبدو لي الكتابة أحياناً ذريعة ـ قهقه ـ وأحياناً بالطبع لا تبدو كذلك. أنا وحيد جداً، حتى أنني في المساء قبل أن أنام لا أجد أحداً لأفكر فيه، فقط لأنني لم أكن طيلة النهار برفقة أحد. كيف يمكن أن نكتب إذا لم يكن هناك أحد نفكر به؟ من جهة أخرى أعاشر هذه المرأة كي يجدني أحد في الوقت المطلوب وكي لا تبقى جثتي مرمية طويلاً.» قهقه.

Twitter: @ketab_n

المرأة: «كفّ عن مناكداتك.»

قام الوالد بحركات ثم أشار إلى مكان في أعلى الغابة: «ألا نرى شيئاً من الجبل هناك في الخلف؟»

المرأة: «هل تبكي أحياناً؟»

الوالد: «نعم مرة، ـ منذ عام ذات مساء كنت جالساً هكذا في الشقة، شعرت برغبة في الخروج بعدئذ.»

المرأة: «أما زلت تجد صعوبة في امضاء الوقت كأيام الشباب؟»

الوالد: «أكثر من أي وقت مضى. مرةً كل يوم أبقى مسمّراً من جراء هذه الفكرة. الآن، مثلاً: أظلمت الدنيا منذ ساعات وعليّ أن أفكر دائماً أن الليل ما يزال في بدايته.»

لفّ ذراعيه حول رأسه. قلّدت المرأة حركته وسألته ماذا تعني.

الوالد: «كنت أغطي رأسي بخرق سميكة وأنا أتخيل طول الليل.»

لم يكن يقهقه بل كان يضحك بصدق: «وأنت أيضاً ستكون نهايتك مثلي يا ماريان. على كلٍّ، مع هذه الملاحظة يتحقق هدف مهمتي هنا.»

ابتسما وقالت المرأة: «بدأ الطقس يبرد، أليس كذلك؟»

هبطا من جديد المنحدر من الجهة الأخرى للمجمع. في لحظة ما تسمّر الوالد ورفع سبابته، التفتت إليه المرأة وهي تمشي ثم قالت: «لا تتوقف دوماً عندما تخطر لك فكرة يا أبي فهذا الأمر يفقدني أعصابي مذ كنت طفلة.»

Twitter: @ketab_n

في اليوم التالي تجوّلا في فرع للألبسة النسائية في متجر كبير مجاور. كانت البائعة تقول لامرأة أجنبية تخرج من غرفة تبديل الثياب وهي في زيّ أخضر: «هذا يناسبك تماماً»، تقدم الوالد وقال: «هذا ليس صحيحاً. الثوب مرعب ولا يلائمها إطلاقاً. اقتربت المرأة بسرعة وجرّت والدها إلى مكان بعيد.

استقّلا سلماً كهربائياً، تعثر الوالد عند نهايته وإذ هو يتابع نظر إليها وقال: «أنا بحاجة ماسة لمشاهدتنا نحن الإثنين في صورة. هل يوجد كشك تصوير هنا؟». عندما وصلا أمام آلة التصوير، كان هناك رجل منشغل بتغيير المادة المظهّرة. انحنى الوالد فوق الصور المعروضة المثبتة على هيكل الآلة: «أربع صور فوق بعضها لشاب تنفرج شفته العليا عن أسنانه ليبتسم وفي إحدى الصور فتاة. تأمل الوالد رجل المادة المظهرة وهو يقفل العلبة ويقف من جديد، أشار الوالد إلى الصور مندهشاً: «هذا أنت، أليس كذلك؟».

كان الرجل واقفاً إلى جانب صوره الخاصة: الآن أصبح عجوزاً أكثر، أصلع تقريباً وابتسامته أيضاً مختلفة. اكتفى بهز رأسه. سأله الوالد عن الفتاة لكن الرجل همّ بحركة فقط، مثل من يرمي شيئاً وراءه ويبتعد.

عند انتهاء الصورة، مشيا هنا وهناك في انتظار أن تظهّر. رجعا إلى الآلة، كان يخرج منها شريط من الصور. أمسكت المرأة به ولكنها رأت في الصور شخصاً لا تعرفه.

Twitter: @ketab_n

نـظرت حولهـا: الشخص الذي في الصـور هنا أمـامها: «صـورك جـاهزة منـذ وقت طويـل. لقد سمحت لنفسي بـرؤيتها. اعذريني.» تبادلا الصور. تأمل الوالد الـرجل طـويلاً وقـال: «أنت ممثل، أليس كذلك؟»

أشار الرجل برأسه أن نعم وحوّل نظره: «لكني الآن دون عمل.»

الوالد: «ما عندك لتقوله يـزعجك دائـماً، مما يجعـل الأمر مـزعجاً حقاً.»

ضحك الرجل وحوّل نظره مرة ثانية.

الوالد: «هل أنت جبان إلى هذا الحد في حياتك الخاصة أيضاً؟»

ضحك الرجل ولم يلتفت ثم عاود النظر بسرعة كبيرة.

الوالد: «عيبك كما أعتقد هو أنك دائماً تحتفظ بقليل منك لذاتك. بصفتك ممثلاً، أنت لست جريئاً كفاية. تريد أن تكون نموذجـاً كما في الأفلام الأميركية ومع ذلك فانت لا تـورّط نفسك أبـداً. أنت تتصنع فقط.

نظر الرجل إلى المرأة لكنها لم تتدخل.

الـوالد: بـرأيي، يجدر بـك يومـاً ما أن تتعلم أن تـركض حقاً، أن تصرخ حقـاً وأن تفتح فمـك على مـداه. لاحظت أنـك حتى عنـدمـا تتثاءب لا تجرؤ على فتح فمـك على مـداه.» لَكَم الرجـل على معـدته فـالتوى. «وأنت لم تتمـرن أيضـاً. كم من الـوقت مضى عليـك دون عمل؟»

الرجل: «لم أعد أحصي الأيام.»

Twitter: @ketab_n

الوالد: في فيلمك المقبل أثبت لي بأنك فهمتني.»

ضرب الرجل بقبضته راحة يده. قلّد الوالد حركته: «هذا ما أعنيه بالضبط!» مضى في طريقه ثم التفت ليصرخ: «لم يكتشفك أحد بعد. إني أسرّ لرؤيتك وأنت تتقدم في السنّ من فيلم إلى آخر.»

لاحق الممثل والمرأة الوالد بنظراتهما ثم تصافحا مودعين. انتفضا معاً على إثر شحنة كهربائية خفيفة.

قالت المرأة: في الشتاء، كل شيء يحمل شحنة كهربائية. لاحظا وهما ينويان الافتراق أنهما ذاهبان في الاتجاه نفسه: ظلاّ يمشيان جنباً إلى جنب دون كلام. أمام الموقف حيث لحقا بالوالد، تودّعا من جديد بهزّة من رأسيهما ولكنهما تابعا رغم ذلك سويّة لأن سيارتيهما كانتا تقريباً الواحدة قرب الأخرى.

رأت المرأة وهي تقود السيارة أن الرجل قد تخطّاها. كان ينظر نصب عينيه. انعطفت المرأة.

كانت في المحطّة مع الأب والولد. عندما وصل القطار قالت: «لقد سرّني وجودك يا أبي.» أرادت أن تتابع الكلام ولكنها تمتمت فقط، قام الوالد بحركات مختلفة وقال فجأة للولد الذي كان يرفع حقيبة السفر: «أنت تعرف أنني ما زلت لا أميّز الألوان. ولكن عليك أن تعرف أيضاً أن هناك شيئاً آخر لا أعرف أن أفعله: مع أنهم سوف يدعونني عما قريب عجوزاً، فأنا لا أنتعل خفّاً في البيت وأنا فخور بذلك.» صعد المدرجة متراجعاً برشاقة كبيرة دون أن يتعثر واختفى داخل القطار الذي ما لبث أن انطلق. قال الولد: «لكنه ليس عكشاً إلى هذا الحد.» المرأة: «إنه يتظاهر بذلك.»

Twitter: @ketab_n

كانا واقفين على رصيف المحطة المقفر ـ القطار التالي لن يدخل المحطة إلا بعد ساعة ـ التفتا صوب الجبل الذي يرتفع بانحناءة ناعمة وراء المدينة الصغيرة. قالت المرأة: «غداً سنصعد إلى فوق فأنا لم أذهب إلى هناك من قبل.» هزّ الولد رأسه. المرأة: «لكن يجب ألا نبقى طويلاً لأن النهارات لا تزال قصيرة جداً. أحضر بوصلتك.»

في وقت متأخر بعد الظهر، كانا في حديقة للحيوانات في الهواء الطلق في الجوار، وسط أناس كثيرين يتنقلون صامتين عبر المخيمات؛ وأناس يضحكون فيما بينهم واقفين أمام المرايا المشوَّهة. كانت الشمس تغيب ومعظم الزائرين يتوجهون مسرعين نحو المخرج. وقفت المرأة والولد أمام قفص يراقبان. أتى الغسق وطلع الهواء، كانا وحيدين تقريباً جلست المرأة على حافة مساحة من الباطون حيث يدور الولد في سيارة كهربائية.

نهضت المرأة فصرخ الولد: «المكان جميل جداً هنا. لا أريد العودة الآن». المرأة: «ولا أنا أيضاً. نهضت فقط لأن المكان جميل جداً».

كانت تتأمل السماء جهة الغرب، ما زالت صفراء عند الحافة السفلى التي تبدو أمامها الأشجار الخالية من الأوراق أكثر عرياً. حمل الهواء فجأة من مكانٍ ما أوراقاً يابسة إلى ساحة الباطون، بدت كأنها آتية من فصل آخر.

كان المساء قد هبط عندما وصلا أمام باب المنزل. ثمة رسالة في علبة الرسائل. قرأت المرأة العنوان وسلّمتها إلى الولد. وضعت

Twitter: @ketab_n

المفتاح في الباب لكنها لم تفتحه، انتظر الولد وقال أخيراً: «ألن ندخل؟»

المرأة: «فلنبق بعد قليلاً في الخارج!»

بقيا طويلاً أمام باب المدخل. مرّ أمامها رجل يحمل حقيبة أعمال ولم يتوقف عن الالتفات إليهما.

في المساء وفيما كانت المرأة تحضر الطعام في المطبخ وتركض في أثناء ذلك إلى غرفة الجلوس لتصحح مخطوطتها، قرأ الولد الرسالة لنفسه بصوت خافت: «عزيزي ستيفان، أمس رأيتك وأنت راجع من المدرسة. كنت أمام رتل من السيارات فلم أستطع التوقف. وأنت كنت تضم رأس صديقك البدين تحت ذراعك.» عند هذه العبارة أخذ الولد يبتسم: أرغب في رؤيتك قريباً.» ـ وهنا قطّب الولد جبينه ـ «وشمّك...»

أثناء الليل، كانت المرأة جالسة في غرفة الجلوس تستمع إلى الموسيقى ودائماً الأسطوانة ذاتها: **المرأة العسراء***:

خرجت مع آخرين
من دخل محطة للمترو.
أكلت مع آخرين في مطعم للخدمة الذاتية.
انتظرت مع آخرين داخل مغسل أوتوماتيكي
ولكني رأيتها مرة وحيدة
أمام كشك للصحف.

(*) بالإنكليزية في الأصل.

Twitter: @ketab_n

خرجت مع آخرين من بناء المكاتب
تجمعّت مع آخرين أمام بسطة في السوق
جلست مع آخرين حول كومة من الرمل
ولكني ذات مرة رأيتها عبر النافذة تلعب الشطرنج وحيدة.

تمددت مع آخرين على عشب منتزه
ضحكت مع آخرين أمام المرايا المشوهة
أطلقت مع الآخرين صرخات على دولاب الألعاب الكبير
من ثمّ لم أرها تمر وحيدة إلا في أحلامي.

لكن اليوم في منزلي المفتوح
سماعة الهاتف فجأة في الجهة المخالفة
القلم إلى يسار دفتر الملاحظات
قربه فنجان الشاي مقبضه إلى يسار
قربه التفاحة المقشرة في الاتجاه المعاكس
(غير مقشرة حتى آخرها)الستائر مفتوحة من اليسار
ومفاتيح البيت في الجيبة اليسرى
لقد فضحت نفسك أيتها العسراء!
أم أنك تريد إعطائي إشارة؟

Twitter: @ketab_n

أود لو أراك في قارة مجهولة.

لأنني هناك أخيراً سأراك وحيدة

بين آلاف الآخرين

وستريني أنا بين آلاف الآخرين

وسيذهب أخيراً واحدنا لملاقاة الآخر.

عند الصباح خرجت المرأة والولد من البيت، لم يرتديا ثياباً خاصة لأن الجبل ليس مرتفعاً جداً. مرّا عبر الأزقة بالقرب من البناغل الأخرى وتوقفا أمام إحدى الواجهات الخالية كلها تقريباً من النوافذ. عند باب كستنائي علق على يمينه ويساره فانوسان جذعهما أسود كأنهما زينة ناووس ضخم.

سارا في طريق حرجية تصعد بنعومة وتصلها الشمس باهتة النور. تركا الممر وتسلقا منحدراً، مرّا بالقرب من بحيرة للأسماك أفرغت مياهها في الشتاء. توقفا أمام مقبرة يهودية في وسط الغابة حيث كانت الحجارة متوارية حتى نصفها في الأرض. على مسافة أعلى، كان الهواء يصفر بنبرة حادة جداً تكاد تؤلم الأذنين. أصبح الثلج أبيض ناصعاً بعد أن كان في الأسفل مغطى بحبيبات من السخام؛ وحيث آثار الأيائل بدل آثار الكلاب.

كانا يصعدان عبر الحرجة. العصافير تزقزق في كل مكان. مياه الثلج الذائب تجري عبر الجداول الصاخبة. أغصان ناعمة تبزغ على

Twitter: @ketab_n

جذوع السنديان، أوراق يابسة تهتز متباعدة؛ جذوع بتولة وقشور أشجار تتدلى خرقاً بيضاء مرتعشة.

عبرا فرجة تلتصق على حدودها آيائل بعضها ببعض. كانت رؤوس أعشاب ذابلة تطل من الثلج غير المرتفع كثيراً وتنثني في الريح.

كلما سارا صعوداً، زاد النهار إشراقاً. كان وجهاهما مجلوفين وعرقين. في الأعلى ـ لم تكن الطريق طويلة جداً ـ جلسا في المجرى الهوائي لصخرة كبيرة وأشعلا ناراً من الأحطاب اليابسة.

الوقت مبكر بعد الظهر. كانا جالسين قرب النار ينظران إلى السهل في الأسفل حيث كانت تلمع من وقت لآخر سيارة في ضوء الشمس؛ كانت البوصلة في يد الولد. بعيداً في الأسفل، أخذت نقطة تشتعل ثم انطفأت بعد وقت قصير، نافذة مفتوحة وسط نوافذ كثيرة مغلقة.

كان الطقس بارداً جداً حتى أن غيوم الدخان المتصاعدة من النار راحت تذوب ندفاً وتختفي ما أن تلامس الهواء. أكلا بطاطا، كانا قد أحضراها في كيس صغير، مشوية في الجمر وشربا قهوة ساخنة من الترموس. التفتت المرأة نحو الولد الذي كان ينظر جامداً إلى الأسفل. داعبته بخفة في ظهره وكما لو أن ذلك كان في تلك اللحظة على أكثر ما يتعلق به من الخصوصية أخذ يضحك.

قالت بعد وقت قليل: «ذات يوم كنتَ جالساً هكذا على الشاطيء تنظر لساعات طوال إلى الأمواج. هل تتذكر؟»

الولد: «طبعاً كان الليل قد هبط ولكني لم أكن أريد العودة. كنتما

Twitter: @ketab_n

مستاءين لأنكما لا تستطيعان الرجوع إلى الفندق. كنت ترتدين ثوباً أخضر وقميصاً بيضاء أكمامها من الدانتيل وقبعة واسعة كان عليك أن تمسكيها لأن الهواء كان قوياً، على شاطيء ذلك البحر لم تكن هناك أصداف بل حصى فقط.»

المرأة: «عندما تأخذ بالتذكر أخاف عندها أن يبرز ذهب اقترفته.»

الولد: «وفي اليوم التالي دفعك برونو إلى البحر بكامل ثيابك وحذائك ليضحك. كنت ترتدين حذاء كستنائياً يبكّل بزّر.»

المرأة: «أتذكر ذات مساء كنت ممدداً على ظهرك في وعاء الرمل أمام البيت دون حراك؟»

الولد: «لا أذكر شيئاً من هذا.»

المرأة: «الآن، أنا من يتذكر. وضعت يديك تحت رأسك وطويت ساقاً واحدة. كان الفصل صيفاً في ليلة صافية دون قمر والنجوم في السماء، وأنت كنت ممدداً على ظهرك ولم يكن في الإمكان التحدث إليك.»

قال الولد بعد وقت قليل: «ربما لأن الجو كان هادئاً للغاية في وعاء الرمل.»

نظرا، أكلا. أطلقت المرأة ضحكة؛ هزت رأسها. ثم حكت: «منذ عدة سنوات ذهبت لمشاهدة لوحات لرسام أميركي، أربع عشرة لوحة متتالية تمثل مراحل آلام يسوع المسيح ـ عندما نزف دماً على جبل الزيتون كما تعلم، عندما جلد، إلخ. غير أن هذه اللوحات لم تكن مصنوعة إلا من مساحات سوداء وبيضاء، خلفية بيضاء تعبرها طولاً وعرضاً أزياح سوداء. في المرحلة ما قبل الأخيرة عندما أنزل

Twitter: @ketab_n

يسوع عن الصليب، كانت اللوحة كلها سوداء تقريباً. وفي المرحلة التالية الأخيرة، عندما وضع يسوع في القبر، كانت اللوحة فجأة بيضاء بأكملها. وهنا الأمر الغريب: مررت ببطء أمام مجموعة اللوحات هذه، وعندما وصلت اللوحة الأخيرة البيضاء كلها رأيت لوقت وجيز اللوحة السوداء متموجة فيها، ومن ثم لم أعد أرى سوى الأبيض.»

نظرا، أكلا وشربا. حاول الولد أن يصفر لكن البرد منعه من ذلك. قالت المرأة: «فلنأخذ صورة أيضاً قبل أن نغادر.» كانت المرأة في الصورة مأخوذة من الأسفل، خافضة عينيها، وراءها السماء وبالكاد رؤوس أشجار الصنوبر. هتفت المرأة مذعورة: «هكذا يرى الأطفال الكبار إذاً!»

في البيت، دخلت إلى المغطس في الحمام ومعها الولد. استندا إلى المغطس، أرجعا رأسيهما وأغمضا أعينهما. قال الولد: «لا أزال أرى الأشجار على الجبل.» كان البخار يتصاعد من الماء. الآن في الغسق، بدا المجمّع كأنه جزء من الغابة التي تعلو خلفه ومن السماء الخافتة اللون. كان الولد يصفّر في المغطس والمرأة تتأمله متجهمة تقريباً.

أثناء الليل، جلست مستقيمة أمام الآلة الكاتبة وراحت تعمل بسرعة.

في النهار، سارت في منطقة المشاة في المدينة الصغيرة حاملة في يدها كيساً من البلاستيك مدعوكاً من كثرة الاستعمال. كان برونو يمشي أمامها بين الناس. فيما هو يتابع التنقل، كانت تتبعه. بعد وقت

Twitter: @ketab_n

قليل التفت هكذا صدفة فقالت في الحال: «رأيت منذ فترة قصيرة هناك في المخزن المقابل كنزة تلائمك تماماً». أمسكت في الحال ذراعه ودخلا المخزن حيث كانت البائعة تجلس مغمضة العينين، وراءها «مانيكان». كانت تضع يديها المحمرتين والخشنتين فوق ركبتيها، كانت تستريح وهي مقطبة الجبين كما في الصعود المؤلم للهدوء فيما زوايا فمها متدلية. نهضت عند دخولها فقلبت كرسيها وتعثرت بتعليقة مرمية على الأرض.

عطست، ارتدت نظارتيها ثم عطست من جديد.

قالت المرأة بنعومة كأنها تهدىء من روعها: «في الأسبوع الماضي رأيت كنزة رجالية معروضة من الكشمير الرمادي.

فتشت البائعة على الرف وإصبعها ممدود. نظرت المرأة فوق كتفها، سحبت الكنزة وأعطتها إلى برونو ليجرّبها. كانت صرخات طفل تأتي من زاوية حيث وضعت سلة على الأرض قالت البائعة: «لا أجرؤ على الاقتراب منه فأنا مصابة بالزكام.» انحنت المرأة فوق السلّة فهدأ الطفل. كان برونو قد ارتدى الكنزة. نظر إلى البائعة التي هزت فقط كتفيها وتمخطت طويلاً.

قالت المرأة بصوت خافت لبرونو أن يبقى مرتدياً الكنزة. أراد أن يدفع لكنها هزت رأسها ممانعة وأشارت بإصبعها إلى نفسها وأعطت الورقة النقدية إلى البائعة.. أظهرت البائعة جرار الصندوق الفارغ وقالت المرأة بالصوت المنخفض نفسه إنها ستأتي غداً لتسترجع باقي النقود: «أو بالأحرى تعالي لزيارتي، أجل تعالى لزيارتي.» كتَبَت عنوانها بسرعة: «أنت وحيدة مع الطفل، أليس كذلك؟ حسن أن

Twitter: @ketab_n

نرى عندما ندخل مخزناً أحداً ما غير شبح مزخرف. اعذريني لأني تكلمت عنك كأن لي الحق بذلك، كأنني قادرة على ذلك.»

فيما هما خارجان أخذت البائعة مرآة صغيرة ونظرت إلى نفسها، دهنت أنفها بمرهم للزكام ثم دهنت شفتيها.

في الخارج قالت المرأة لبرونو: «إذاً أنت لا تزال على قيد الحياة؟»، أجاب برونو بشيء من الغبطة: «في بعض الأحيان، بعد الظهر، أنا أيضاً أفاجأ حين أرى أني لا أزال موجوداً هنا. على فكرة، لاحظت أمس أنني لم أعد أحصي الأيام التي أمضيها بعيداً عنك.» ضحك: «حلمت أن كل الناس قد أصبحوا مجانين، كلٌّ بدوره، ما إن يصاب واحد جديد حتى يتولاه فرح جلي بالحياة، بحيث أننا نحن الباقين لم نكن ملزمين على الشعور بوخز الضمير. هل يطالب بي ستيفان؟»

قالت المرأة وهي تنزع عنه من الخلف الورقة التي كتب عليها السعر: «تعال قريباً»، مضت وانطلق هو في اتجاه آخر.

جلست في مقهى تقرأ جريدة وهي تتمتم، وصل الممثل بغتة وبقي واقفاً أمامها: «رأيت سيارتك في الخارج في الموقف.»

نظرت إليه غير مندهشة وقالت: «للمرة الأولى منذ وقت طويل أقرأ جريدة، لم أكن أعرف شيئاً عما يحدث في العالم. في أي شهر نحن؟»

Twitter: @ketab_n

جلس الممثل قربها: «في شباط».

ـ «وفي أية قارة نعيش؟».

ـ «في قارة من القارات»

المرأة: «هل لك اسم؟» قال الممثل اسمه؛ نظر جانباً وأخذ يضحك، أزاح الأكواب عن الطاولة. ثم نظر إليها من جديد وقال: «لم أتعقب امرأة من قبل، وها أنا أبحث عنك منذ أيام. وجهك عذب جداً كأنك تعين باستمرار أنه يجب علينا أن نموت. اعذريني إذا تفوهت بحماقات.» هزّ رأسه: «دائماً لدي رغبة في التراجع عما كنت أقوله! في الأيام الأخيرة لم أكف عن الحركة لفرط شوقي إليك. لا تغضبي، تبدين لي حرة إلى أبعد الحدود ـ أخذ يضحك ـ لديك علامة حياة فائقة على الوجه. حتماً ستفكرين بأنني أعيش في توتر شديد لأنني دون عمل منذ وقت طويل. لا تقولي شيئاً. يجب أن تأتي معي. لا تتركيني وحدي. أريدك لي. أي كائنين ضائعين كنا أنا وأنت حتى الآن؟ عند موقف للترامواي قرأت: هو يحبك، هو سينقذك. وفكرت بك في الحال: ليس هو بل نحن من سينقذ أحدنا الآخر. أود لو أحيطك من جميع الجهات معاً، أن أحس بك في كل مكان، أن أحس بالحرارة تصعد من جسدك إلى يدي حتى قبل أن ألمسك! لا تسخري مني. آهٍ، كم أنا راغب فيك. أن نكون معاً، أن أكون معك الآن حالاً بقوة وإلى الأبد!»

كانا جالسين دون حراك الواحد قبالة الآخر، بدا على وشك الغضب، خرج من المقهى راكضاً. كانت المرأة تجلس جامدة بين الآخرين.

Twitter: @ketab_n

عَبَر «باص» مضاء في الليل. لم يكن في داخله إلا بعض النسوة العجائز. دار ببطء حول الساحة الكبيرة واختفى في الظلام؛ كانت المقابض الفارغة تهتز.

في المساء، كانت المرأة والطفل جالسين في الغرفة يلعبان النرد. في الخارج هزّت العاصفة الأبواب. أحياناً كانا يتوقفان حتى في غمرة اللعب فقط لسماع العاصفة تصفر.

رنّ الهاتف طويلاً. ذهب الولد أخيراً، رفع السماعة وقال: «لا رغبة لي في الكلام الآن.» وللمرأة: «برونو يريد المجيء مع المعلمة.» قامت المرأة بحركة موافقة وقال الولد في الجهاز: «نعم لن أكون قد نمْتُ بعد!»

ثم، فيما هما يعودان للعب، قرع الباب هذه المرة.

في الخارج الناشر. قال للولد الذي فتح له: «من هو الصغير الذي عيناه متعبتان تماماً ولم ينم بعد انتهاء برامج الأطفال؟»

اقترب من المرأة بخطى واسعة وقبّلها.

سألت المرأة: «هل أنت عائد مرة أخرى من عند كاتبك البائس؟»

الناشر: «ليس هناك كاتب بائس ولم يوجد قط.»

انتشل زجاجة الشمبانيا من جيب معطفه وقال إن هناك زجاجات أخرى في السيارة.

Twitter: @ketab_n

المرأة: «لكن ادع السائق على الأقل للمجيء.»

بعد فترة قصيرة فتح الناشر الباب وأشار إلى السائق الذي مسح قدميه طويلاً ودخل متردداً.

الناشر: «أنت مدعو لتناول كأس.»

المرأة: «أو كأسين.»

قرع جرس الباب من جديد. ذهب السائق ليفتح. دخلت بائعة المحل مبتسمة وقد صارت جميلة.

كانوا جميعاً جالسين أو واقفين في غرفة الجلوس يشربون. الولد لا يزال يلعب بالنرد. موسيقى. كان الناشر ساهماً ثم راح يجيل نظره فيهم؛ صار فجأة فرحاً وسكب للسائق من جديد.

رنّ الهاتف مرة أخرى هرعت المرأة وقالت في الحال: «هذا أنت، أليس كذلك؟ ـ صوتك قريب جداً. أنت في غرفة الهاتف عند زاوية الشارع، إنني أسمعه.»

دوّى الجرس وجيزاً جداً كأن أحداً ما أليفاً قرعه.

أشارت المرأة برأسها إلى الآخرين كي يفتحوا الباب فيما هي تتابع التحدث عبر الهاتف: «لا أنا لست وحيدة، في مقدورك سماع ذلك، لكن تعال على كل حال، تعال!»

دخل برونو وفرانشيسكا من الباب المفتوح.

فرانشيسكا: «ونحن الذين كنا نعتقد أننا سنجد هنا المخلوق الأكثر عزلة في العالم.»

المرأة: «آسفة للصدفة التي تجعلني غير وحيدة هذا المساء.»

Twitter: @ketab_n

قالت فرانشيسكا للولد: «لي اسم. لا تقل إذاً المعلمة حين تتحدث عني، كما في التلفون منذ قليل.»

الناشر: «وأنا أيضاً لا أريد أن أُدعى دائماً «الناشر» بل إرنست.»

قبلت المرأة برونو.

اقترب الناشر وقال لفرانشيسكا: «فلنقبل بعضنا نحن أيضاً.» كان قد أحاطها بذراعيه. خرجت المرأة من عتبة الباب إلى الطريق التي كان الممثل ينزلها ببطء. أدخلته دون أن تقول كلمة.

تأمله برونو وقال: «أنت من هو الصديق!» ثم: «تضاجع زوجتي، هه؟ أو على الأقل هذا ما ترمي إليه، أليس كذلك؟»

كانت نظرته ثابتة كما في المكتب: «أنت حتماً تنتمي إلى هؤلاء الذين يقودون سيارة محرتقة وعلى مقاعدهم الخلفية نشرات سياسية مصوّرة ومليئة بالعراة؟».

أخذ يحدّق فيه: «وحذاؤك أيضاً ليس مطلياً. لكنك على الأقل أشقر. وفوق ذلك عيناك زرقاوان؟» ظلَّ يتابع التحديق ثم استرخى فجأة. مكثت المرأة هادئة جداً قربه.

قال: «تعرفين. أنا فقط أتكلم هكذا من غير أن أقصد شيئاً.»

كانوا جميعهم في غرفة الجلوس. الناشر يرقص مع البائعة. السائق رجع لتوّه من السيارة حاملاً عدة زجاجات من الشمبانيا، ثم انتقل من واحد إلى آخر وهو يدق كأسه، بكؤوس الآخرين، الولد يلعب في وسطهم على الأرض. قرفص برونو قربه وتأمله.

الولد: «هل تلعب معي؟»

Twitter: @ketab_n

برونو: «هذا المساء أنا غير قادر على اللعب.»

افترقت البائعة عن الناشر وانحنت لتلعب النرد مع الولد. كانت ترمي النرد إلى الولد وهي تتابع الرقص.

كان الناشر وفرانشيسكا يدوران حول بعضهما وهما يحملان الكؤوس المترعة.

كان برونو في غرفة الحمام يقص أظافر الولد.

مرّ الناشر وفرانشيسكا ببطء الواحد قرب الآخر في الرواق وهما يبتسمان.

مكث برونو إلى جانب الولد في السرير. قال الولد: «أنتم جميعاً ساكتون بطريقة غريبة.» وقف هنا برونو في الغرفة جامداً. أحنى فقط رأسه جانباً، ثم أطفأ النور.

ذهب عبر الرواق مع المرأة ليوافي الآخرين. جاء الممثل لموافاتهما فوضع برونو ذراعه حول كتف امرأته، ثم انتزعها.

قال الممثل لها إنه كان يفتش عنها.

كانوا جميعاً جالسين في غرفة الجلوس؛ قليلاً ما يتكلمون، بالرغم من هذا بدوا كأنهم يقتربون، من غير أن يدعوهم شيء في الظاهر، أكثر فأكثر من بعضهم وبقوا هكذا لبعض الوقت.

أحنت البائعة رأسها قليلاً وقالت: «كم هو طويل هذا اليوم. كانت عيناي في رأسي مجرد فتحتين لاهبتين. ها إن الألم الآن يخف واسترجع الرؤية شيئاً فشيئاً.»

Twitter: @ketab_n

همّ السائق قربها بحركة كأنه ينوي أن يمرر يده في شعرها؛ ثم ترك يده تسقط.

ركع الناشر أمام البائعة وقبل أصابع قدميها الواحد تلو الآخر.

أخرج السائق من محفظته صوراً وأظهرها لكل واحدٍ منهم بالتتابع. قالت فرانشيسكا للبائعة: «لماذا لا تنضمين إلى حزب ما؟»

لم تجب البائعة وغمرت فرانشيسكا فجأة، تجردت هذه الأخيرة منها ثم قالت وهي تنظر إلى المرأة: «الوحدة تجلب العذاب الأكثر برودة والأكثر قرفاً الذي يمكن له أن يوجد: نصبح مائعين، عندها نحتاج إلى أناس ليعلّمونا أننا في جميع الأحوال لسنا تالفين إلى هذا الحد».

هزّ السائق رأسه بقوة ونظر إلى الناشر. رفع الناشر ذراعيه وقال: «أنا لم أقل العكس.»

كانت البائعة تدندن مع الموسيقيين ثم نامت على الأرض ومدّت ساقيها.

جاء السائق وفي يده مفكرة وأخذ يرسمهم جميعاً.

أرادت فرانشيسكا أن تفتح فمها لكن السائق قال: «لا تتحركي لو سمحتِ.» فأغلقت فرانشيسكا فمها من جديد.

وفجأة أخذوا يضحكون جميعهم في الوقت نفسه.

قال برونو للممثل: «على فكرة، هل تعلم أنك جالس في مكاني؟»

نهض الممثل ليغير كرسيه فقال له السائق المنهمك في الرسم بصوت صارم: «ابق مكانك.»

Twitter: @ketab_n

جذب برونو كرسي الممثل الذي كان يهم بالجلوس فسقط على الأرض.

نهض الممثل من جديد ببطء وتقدم باتجاه برونو. أخذا يتدحرجان على الأرض، حاول السائق أن يفرقهما. ارتدت البائعة نظارتيها.

تبادلت فرانشيسكا النظرات والناشر الذي أخبرهم عندئذ أنه غرق مرة في سفينة خلال الحرب. نظرت المرأة عبر النافذة إلى الحديقة حيث كانت رؤوس الأشجار تهتز بقوة.

عاد السائق من السيارة حاملاً علبة من الضمادات. أخذ بيد كلٍّ منهما وشبك الواحدة بالأخرى، رجع إلى الوراء مشيراً إليهما أن يبقيا في هذا الوضع وأخذ يرسم. غضن برونو والممثل وجهيهما فصرخ السائق: «لا تضحكا.»

غسل برونو والممثل وجهيهما معاً في الحمام.

جاءت البائعة وفرانشيسكا وجففت لهما وجهيهما بالمناشف.

دار السائق بالرسم الذي أنجزه على الجميع.

كانت المرأة وبرونو واقفين على الشرفة. سأل برونو بعد وقت قليل: «والآن هل عرفت كيف ستستمرين.»

أجابت المرأة: «لا، رأيت لبرهة حياتي المقبلة بوضوح أمامي فغمرني البرد حتى أعمق أعماقي.»

مكثا هناك ينظران تحت إلى المرائب التي انزلقت أمامهما أكياس بلاستيكية. كانت المرأة التي في خريف العمر تمشي في الشارع دون كلبها وفي ثوب للمساء أطول من معطفها. ألقت عليهما التحية في

Twitter: @ketab_n

الحال من الأسفل بذراعيها الإثنتين كأنها تعرف كل شيء؛ ردّا عليها التحية معاً.

سألته المرأة عما إذا كان سيذهب إلى مكتبه في الغد.

برونو: «لا تتكلمي عن هذا الآن.»

دخلا من باب الشرفة إلى غرفة الجلوس متآبطين، أشار السائق إليهما وهو يشرب ثم هتف: «غير معقول، الحب لا يزال موجوداً!»

ضربته البائعة على أصابعه وقالت: «الولد نائم!»

جدد السائق ملاحظته بصوت أكثر خفوتاً.

تناعس الناشر وهو متكىء إلى كنبة فرانشيسكا ثم نام. نهضت فرانشيسكا بحذر، أخذت بيد السائق ورقصا الخد على الخد.

اقترب الممثل من المرأة الواقفة عند النافذة.

نظرا معاً إلى الخارج حيث كانت سماء العاصفة المليئة بالنجوم تتلألأ ساطعة وتنعكس أيضاً في الغرفة، وراء النجوم. بعد وقت قليل قال: «ثمة حجرات بعيدة جداً حتى أن نورها أضعف من هذه الشرارة في عمق السماء الليلية... أود لو أكون معك، في مكان آخر تماماً.»

أجابت المرأة على الفور: «أرجوك، لا تشركني في مشاريعك.»

نظر الممثل إليها طويلاً جداً حتى أنها نظرت إليه هي أيضاً. وفجأة حكت: «ذات يوم، عندما كنت نائمة في المستشفى رأيت امرأة عجوزاً مريضة، حزينة حتى الموت تداعب الممرضة الواقفة

Twitter: @ketab_n

قربها، كانت تداعب فقط ظفر إبهامها دون توقف، فقط ظفر إبهامها.»

كانا لا يزالان ينظران إلى بعضهما.

قال الممثل أخيراً: «فيما كنا واقفين هنا ننظر إلى بعضنا بدت لي كل حواجز حياتي كأنها أشكال وعرة تمنعني من أن أكون متنبهاً لك، في الوقت نفسه وفيما أنا لا أنقطع عن النظر إليك رأيت كل هذه الحواجز تصبح بدون موضوع، الواحد تلو الآخر: وفي النهاية لم يبق إلا أنت: أحبك الآن، أحبك.»

كان برونو يجلس جامداً؛ يشرب فقط.

تركت البائعة السائق ورقصت مع فرانشيسكا.

كان السائق يترنح قليلاً، حاول أن يقوم ببعض الخطوات صوبهما لكنه بقي أخيراً واقفاً على حدة.

أخذ برونو يؤلّف هكذا لنفسه:

الألم مثل مروحة.

إلا أنه لا يقود لأي مكان.

وما يدور، هو المروحة.

أضحك هذا الأمر فرانشيسكا وهي ترقص.

التفت الممثل قرب النافذة إلى برونو الذي سأل إذا لم يكن ذاك يعد شعراً جميلاً.

أجاب الناشر وعيناه مغمضتان كأنه كان فقط يتظاهر بالنوم: «سأنشره في المفكرة الدعائية المقبلة.» نظر إلى السائق الذي كان

Twitter: @ketab_n

يتابع الشرب: «ولكنك ثمل.» نهض دفعة واحدة وقال: «سأوصلك إلى بيتك، على فكرة أين تقيم؟»

السائق: «آه فلنبق بعد. في جميع الأحوال، لن تكلمني غداً.»

الناشر: «ومن أين تعرفني؟»

اقتربت البائعة من المرأة الواقفة قرب النافذة وقالت: «أنا أيضاً أقف غالباً في سقيفتي أمام الكوة فقط لأرى الغيوم. أشعر عندها أنني ما أزال أعيش.»

نظرت إلى ساعتها. التفتت المرأة عندئذ نحو الناشر الذي مرّ ببطء أمامها مراقصاً فرانشيسكا: عليها أن تذهب إلى طفلها.»

وضع الناشر يده على قلبه أمام فرانشيسكا؛ وانحنى أمام البائعة.

قال للمرأة بجدية كبيرة: «مرة أخرى لم نر بعضنا إذاً في ضوء النهار.»

مشوا حتى الباب، السائق متعثراً وراءهم محرتقاً بمفاتيح السيارة فانتزعها الناشر من يده.

عندما أقفلت المرأة الباب خلفهم ورجعت إلى الغرفة، كانت فرانشيسكا جالسة لوحدها تداعب شعرها الأشقر القصير. فتشت المرأة بعينيها عن برونو والممثل. أشارت لها فرانشيسكا أنهما موجودان تحت في القبو. توقفت الموسيقى وسمعت ضجة كرات الطاولة. كانت فرانشيسكا والمرأة جالستين الواحدة قبالة الأخرى. كان الهواء يحرك الكنبات الهزّازة على الشرفة.

فرانشيسكا: «البائعة وطفلها، وأنت وولدك! وفي الغد مدرسة.

Twitter: @ketab_n

في الحقيقة الأطفال يضيقون عليّ. أحياناً أرى ذلك جيداً، يريدون قتلي بأصواتهم وحركاتهم. يصرخون جميعاً معاً، يركضون في كل الاتجاهات، إلى أن نشعر أننا على وشك الاختناق ومصابون بالدوار حتى الموت. وماذا نجني من ذلك كله؟»

المرأة التي كانت قد أحنت رأسها كأنما للموافقة، أجابت بعد قليل: «ربما تتسنى لنا معهم إمكانيات للتفكير أكثر من أن نكون دونهم.»

قالت فرانشيسكا وهي تحمل في يدها بطاقة: «أعطاني الناشر عنوانه وهو ذاهب». نهضت: «أنا أيضاً أود أن أكون الآن لوحدي.» أحاطتها المرأة بذراعها.

فرانشيسكا: «هكذا أفضل.»

قالت فرانشيسكا عند الباب وهي في المعطف: «عندي جواسيسي الذين يخبرونني أنك تتكلمين مع نفسك».

المرأة: «أعرف وهذه المونولوجات تروق لي إلى درجة أنني أبالغ فيها».

بعد صمت قالت فرانشيسكا: «أغلقي الباب وإلا سوف تصابين بالبرد.» صعدت الطريق ببطء خطوة خطوة رأسها محني إلى الأمام وإحدى يديها تتدلى مفتوحة خلفها كما لو أنها تجرّ وراءها سلة ممتلئة حتى الطفحان.

نزلت المرأة إلى القبو حيث كا هناك برونو والممثل. سأل برونو: «هل نحن الأخيران؟»

Twitter: @ketab_n

أجابت المرأة نعم برأسها.

برونو: «سننتهي من هذه الجولة.»

لعبا بكثير من الجدية فيما كانت المرأة تراقبهما مكتوفة الذراعين.

صعد ثلاثتهم الدرج.

في غرفة الملابس، ارتدى برونو ملابسه. ثم الممثل أيضاً. أدخل رأسه في البدء من الفتحة الخطأ للكنزة دون أكمام.

لاحظت المرأة ذلك وابتسمت.

فتحت الباب.

كان برونو قد ارتدى معطفه. تبعه الممثل وقال له إنه أتى في السيارة.

نظر برونو لبعض الوقت أمامه وقال: «هذا جيد لأنني عرقان كلياً.

مكثت المرأة عند فتحة الباب، لاحقتهما بنظراتها وهما يصعدان الزقاق.

توقفا وبَالاَ الواحد قرب الآخر مديرين ظهريهما لها. وفيما هما يتابعان طريقهما لم يرد أحد منهما أن يكون في الجهة اليمنى مما جعلهما يبدلان مكانهما باستمرار.

دخلت المرأة إلى المنزل، أقفلت الباب بالمفتاح وأدارت المزلاج. حملت الأقداح والزجاجات إلى المطبخ. أفرغت المنافض ونظفت المكان. أعادت الكراسي في غرفة الجلوس إلى وضعها السابق وهوّت الغرفة.

Twitter: @ketab_n

فتحت باب الغرفة حيث كان الولد يتقلب وهو نائم وسمعت ظفر القدم الذي قصّه برونو يحفّ داخل الشرشف.

كانت واقفة أمام مرآتها تغسل شعرها. نظرت في عينيها وقالت: «لم تخوني نفسك. ولن يذلك أحدٌ بعدُ أبداً.»

كانت جالسة في غرفة الجلوس مسندة ساقيها إلى كرسي آخر تتأمل الرسم الذي تركه السائق هنا. سكبت كأساً من الويسكي ورفعت كمّي الكنزة. كانت تبتسم في سرها وتهز جام النرد ولا تحرّك إلا قدمها. طويلاً بقيت جالسة في جمود كلّي فيما كانت حدقتاها تتوسعان في حركة منتظمة. نهضت فجأة، بحثت عن قلم وورقة وشرعت ترسم: في المقدمة قدماها على الكرسي، وراءها الغرفة ثم النافذة والسماء المنجّمة المتغيرة مع مرور الليل ـ كل شيء بتفاصيله. لم تكن ترسم برشاقة بل بطريقة مترددة وعكشة؛ ورغم ذلك نجحت من وقت لآخر في رسم بعض الخطوط بضربة واحدة، بدفعة واحدة تقريباً. مضت ساعات قبل أن تترك الورقة. نظرت إليها طويلاً ثم تابعت الرسم.

في وضح النهار كانت جالسة على الشرفة على الكنبة الهزّازة. كانت رؤوس أشجار الصنوبر تتحرك وراءها في الزجاج المعاكس. أخذت تتأرجح، رفعت ذراعها. كانت ترتدي ثياباً خفيفة، غطاء فوق الركبتين.

Twitter: @ketab_n

«هكذا تابعوا، كلٌ على طريقته الحياة اليومية مع ودون تفكير؛ كل شيء يبدو ملاحقاً دورته العادية كما في الحالات القصوى حيث كل شيء مراهن عليه من جديد: يُستمر في العيش كما لو أن شيئاً لم يكن.»

الملاءمات الانتخابية

باريس، شتاء وربيع ١٩٧٦

Twitter: @ketab_n

مؤسسة الجواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٨١٥٧-٨٣٧٧٠٢ . بيروت - لبنان

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

«دون سبب»، تحت تأثير إشراق لن توضّحه لنا ولن تبرّره لنفسها على الأرجح، ولكن منصاعة له بشجاعة، امرأة هذه الرواية تطلب من زوجها أن يرحل وأن يتركها لوحدها مع ابنها البالغ ثماني سنوات. ها هي منذ الآن فصاعداً «حرة». هذه الكلمة الكبيرة جداً، المحددة جداً لم تُلفَظْ بل ولم يُفكّر بها، غير أن أوقات النشوة الأولى تؤكد جيداً شعور الحرية المستعادة. ولكن في الحقيقة بماذا تَعِدُ هذه الحرية؟ في البداية ولوقت طويل، تَعِدُ بالتجربة الحتمية للوحدة. بتجربة دون قواعد، دون هدف، دون نهاية واضحة، نوع من ارتداد مطلق، في حيرة وضياع أسوأ من حيرة الطفولة وضياعها. هذه الحياة حيث تصبح الحركات الأكثر بساطة أحداثاً غريبة، فاقدة طبيعتها، هل ما زالت قابلة للعيش فيها؟ إنّ بيتر هاندكه، ببساطته المذهلة، باقتضابيّته المميّزة وربما الفريدة في الأدب الروائي، يعطي ترابط الحركات والأحداث بعداً عالمياً ومأساوياً.

هذا الكتاب يمكن أيضاً رؤيته بطريقة أكثر صميمية: قرار المرأة للقطيعة واختيارها للوحدة، قراران مجانيان في الظاهر، ولكنهما في باطنهما ينمّان عن فيضان لضرورة بالتحديد روحية في نفس المرأة.

وقد ولد بيتر هاندكه في غريفن، في النمسا عام ١٩٢٤. وهو يعيش حالياً في سالزبورغ. نال جائزة بوخنر تقديراً لعمله الروائي وهي الجائزة الأدبية الأهم في ألمانيا.

تصميم الغلاف
نجاح طاهر

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٣٣ - ١١ بيروت